مركز الدراسات النسوية
Women's Studies Centre

تزوجت ولم أنسَ

مجموعة قصصية

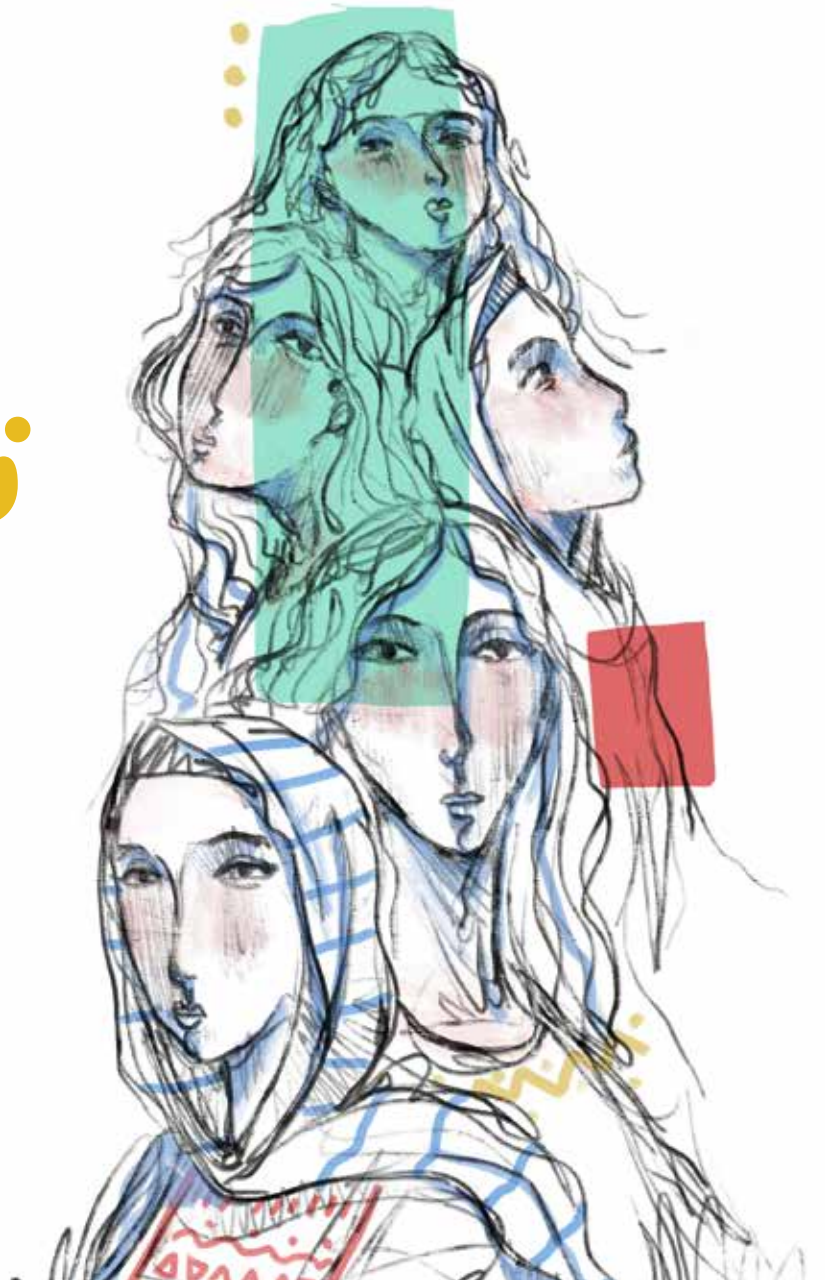

مركز الدراسات النسوية
Women's Studies Centre

تزوجت ولم أنسَ

مجموعة قصصية

مجموعة قصص بعنوان

"تزوجت ولم أنسَ"

مجموعة قصص كتبتها مجموعة من طالبات المدارس الشريكة، اللواتي شاركن في مسابقة كتابة القصة القصيرة حول مخاطر تزويج الصغيرات بهدف نشر التوعية بين زملائهن وزميلاتهن حول أهمية مناهضة تزويج الطفلات، وذلك بعد أن شاركن في مسابقة في كتابة القصة، حيث تمّ اختيار قصصهن من بين عشرات القصص التي كتبها وكتبتها العشرات من الطلاب والطالبات، ومن ثمّ تمّ العمل على تدريبهن لتطوير القصص ضمن ورشة للكتابة الإبداعية قبل العمل على نشرها في هذا الكتيب.

تدريب كتابة إبداعية: أحلام بشارات

رسومات: خالد جرادة

متابعة وتنسيق: عايدة عيساوي

تدقيق لغوي: ضياء عبد المجيد

تصميم ومونتاج: عماد سمير أبوبكر

تشرين ثاني ٢٠١٩

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٩

مركز الدراسات النسوية، القدس، فلسطين

شكر وتقدير

لا يسعنا ونحن نقدم هذه المجموعة من قصص الطلاب والطالبات لأقرانهم/ ن الأعزاء

إلا أن نتقدم للزميلة الكاتبة أحلام بشارات التي دربت الطلاب والطالبات على مهارات الكتابة الإبداعية، ثم حررت النصوص الأدبية المختارة في هذه المجموعة القصصية، وللجنة فرز واختيار القصص الأفضل من مجموعة القصص المشاركة ممثلة بالسيدة الهام قادري غنيم، والدكتور بشار العينبوسي - مديرية الإرشاد والتربية الخاصة والاستاذ تحسين يقين من وزارة التربية التعليم والمرشدتين ثريا ربيع وعزيزة الرجبي لمرافقتهما الطالبات أثناء التدريب، إضافة للكاتبة أحلام بشارات وعايدة عيساوي.

وللإدارة العامة للإرشاد والتربية الخاصة - وزارة التربية والتعليم ممثلة بالسيد محمد حواش وكافة العاملين والعاملات شركائنا بهذا الإنجاز على مدار المشروع ولكافة المرشدين والمرشدات والمشرفين والمشرفات الذين واللواتي ساهموا معنا في تحفيز الطلاب والطالبات للمشاركة في كتابة القصص التي تسهم في توعية الأقران بأهمية مناهضة تزويج الطفلات من خلال كتابة القصص.

ولكافة الطالبات والطلاب الذين واللواتي شاركوا بتقديم قصصهم/ن مؤمنين/ات بأهمية التغيير المجتمعي وصولا للمساواة ما بين الجنسين في الحقوق والواجبات. وأخيرا للطالبات الموهوبات والكاتبات الجديدات لهذه المجموعة وهن سماح الخطيب، وئام حوشية، رتيبة الفاخوري، عهد خلف، سجود شماسنة وبتول حمودة. ولمؤسسة Bread for the World لتمويلها طباعة هذه المجموعة.

هذه المجموعة بتمويل من

Bread for the World

Brot für die Welt

Bread for the World - Protestant Development Service

مركز الدراسات النسوية
Women's Studies Centre

دولة فلسطين
وزارة التربية والتعليم

المقدمة

لأنهم ولأنهن أطفالنا... لأنهم ولأنهن الأمل القادم... الجيل الصاعد... جيل المستقبل، كان لا بدّ من العمل معهم ومعهن... ومن هنا انطلقنا... انطلقنا للعمل معهم ومعهن لنبدأ مشوار بناء ثقافة مبنية على احترام قيم حقوق الإنسان... قيم الديمقراطية والمساواة والعدالة... والتي هي أساس التقدّم ومقاومة كافة أشكال التسلط والقمع.

ولأن الثقافة السائدة قد عملت على تغييب العديد من هذه القيم تحت حجج مختلفة وعناوين مختلفة بهدف تحصيل مكاسب لأطراف على حساب أطراف أخرى... ولأن النساء والفتيات كنّ من الأطراف المستهدفة التي تمّ العمل وضمن الثقافة السائدة على إقصائهن وعدم احترام قدراتهن وحقوقهن... فقد كان برنامج «تعزيز حقوق الطفلة» هو الطريق الذي اخترنا العمل به وفي المدارس تحديداً حتى نطوّر ثقافة تحترم المساواة وتستبعد الإقصاء.

ولأننا أدركنا أن فئة الطلبة ليست مجرد فئة مستهدفة نعمل لأجلها، بل فئة شريكة نعمل معها من أجل إحداث التغيير، فلم نكتفِ بكتابة القصص بل طلبنا من الطلبة مشاركتنا في كتابة هذه القصص، وبما يعبّر عن مشاعرهم ومشاعرهن، وهمومهم وهمومهن، فكان أن قُدّمت لنا عشرات القصص، بعضها رائع وبعضها بحاجة لتطوير وأخرى يصعب نشرها حالياً. وعليه فقد عملنا مع الفئة التي حازت على أفضل تقييم وعملنا معهم ومعهن من أجل تطوير الكتابة، وتعهدنا بالنشر.

هـذه الأقـلام هـي أقـلام الأطفـال والطفـلات التـي تحـاكي أيضـاً أطفـالاً وطفـلات بالعمـر ذاتـه، الأقـلام التـي سـنعمل دومـاً عـلى تطويرهـا بهـدف تطويـر أقـلام تحـترم المسـاواة والعدالـة الاجتماعيـة وتدعـو لهـا... لبنـاء جيـل يعمـل عـلى التغيـير ولا ينتظـر ذلـك مـن أحـد.

ولا يسـعنا ونحـن نقـدّم هـذه المجموعـة مـن إبداعـات الأطفـال إلا أن نشـكر كل مـن سـاهم وسـاهمت في تطويـر هـذا البرنامـج، ونخـص بالذكـر وزارة التربيـة والتعليـم ممثلـة بـالإدارة العامـة للإرشـاد والتربيـة الخاصـة، وعـلى رأسـهم السـيد محمـد حـواش المديـر العـام والعاملـين والعامـلات فيهـا، ومديريـن ومديـرات ومشرفـين/ات ومرشـدين/ات المـدارس التـي عملنـا معهـا، والكاتبـة والأديبـة أحـلام بشـارات التـي راجعـت القصـص وعملـت عـلى تدريـب الأطفـال الذيـن واللـواتي قامـوا بكتابتهـا... والزميلـة عايـدة العيسـاوي مديـرة برنامـج تعزيـز حقـوق الطفلـة في مركـز الدراسـات النسـوية وكافـة المنسـقات في القـدس والخليـل ونابلـس.

هـذا المشـوار هـو اسـتكمال لمشـوار بدأنـا العمـل فيـه في العـام ١٩٩٣ ومـا زلنـا نعمـل ونطـوّر أدواته...وبانتظـار اقتراحاتكـم/ن لتطويـره وصـولاً إلى أجيـال تعتنـق ثقافـة المسـاواة كأسـاس للتنميـة وحقـوق الإنسـان.

معاً نعمل... ومعاً ننجز... ومعاً سنصنع التغيير

ساما عويضة

المديرة العامة لمركز الدراسات النسوية

مجموعة قصصية

٠٩ اتركوها تزهر

٢٥ البريق والنور

٤١ تزوجت ولم أنسَ

٦١ جميلة

٧٧ حصة العلوم

٩١ لوحة وألوان

اتركوها تزهر

قصة للطالبة

وئام محمد حوشية

مدرسة بنات القبيبة الثانوية / القدس

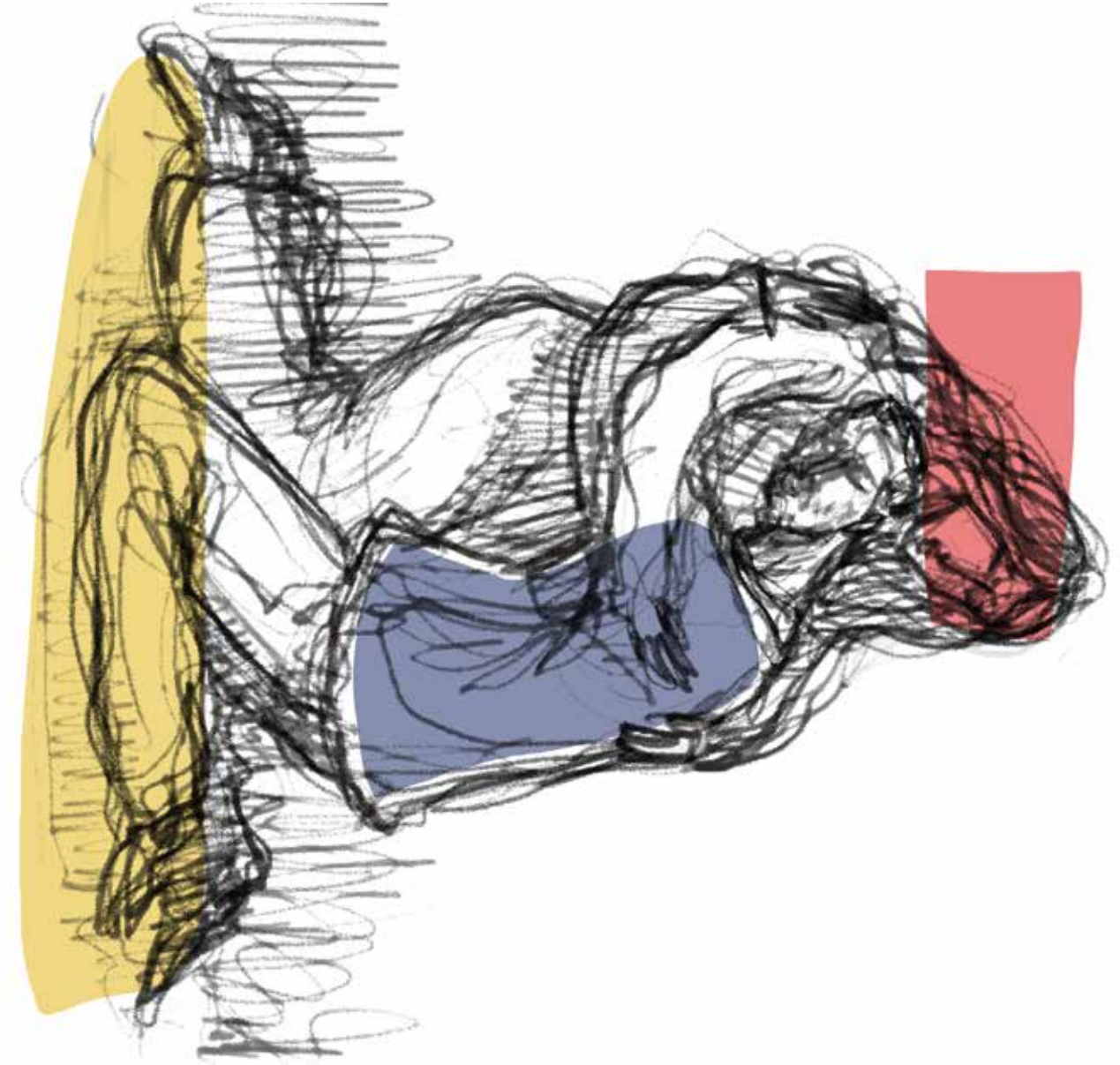

سقطت فناجين القهوة من يدها وتحطمت على أرضية المطبخ مع قلبها، عندما سمعت أبا خالد يقول: حان الوقت لتزويج ابنة أخينا المرحوم أحمد.

بدأ شريط الذكريات يعود إلى رأس الأم (زهرة)، ذات الجسم المرتجف، إنه تماما الارتجاف نفسه، عندما دخل أحمد ذات يوم، قبل سنوات، والدموع تتدحرج من عينيه، حينها أحست بوخزة في قلبها المنهك، وتمتمت: أرجو الله ألا تكون المرة الأخيرة.

كانت المرة الأولى التي ترى فيها دموع زوجها منذ أن علم بمرضه قبل شهر.

كلها يرتجف وهي تقول له:

ما بك، لِمَ البكاء؟ ماذا حدث؟ أخبرني، أخبرني؟؟!

جلس أحمد على ركبتيه، وأخذ يصرخ قائلاً:

أنا أموت ببطء الآن، ما من فائدة، هذا السرطان أحرق كبدي.

خفت صوته الباكي:

لم يتبق الكثير من حياتي، إنها اللحظات الأخيرة. اقتربي، دعيني ألمس بطنك للمرة الأخيرة، لأودع طفلنا. لن أستطيع حمله بين ذراعي عندما يخرج إلى الدنيا. سيولد ابني يتيماً، لن أستطيع حمايتكما، ستبقيان وحيدين دون معيل، إنني أفكر فيكما، كيف ستواجهان هذه الحياة الصعبة من دوني؟

أستحلفك بالله أن تسكت يا أحمد، أرجوك، أرجوك لا تمت، ابق معنا. أرجوك، لا أستطيع أن أحيا أنا وطفلي وحدنا.

هـلّا جلسـتِ بجـواري؛ لأستنشـق عبـق الحـب والعطـر الـذي يفـوح مـن صـدرك للمـرة الأخـيرة؟ هـل تسـمحين لي أن أمـوت بـين ذراعيـكِ يـا أمـيرتي؟ لطالمـا كانـت المسـافة التـي بـين كتفيـكِ موطنـي، آآه.. إن نغـمات قلبـك تثـير الطمأنينـة في روحـي، وتهدئنـي أكـثر مـن ذلـك المخـدر اللعـين الـذي كانـوا يحقوننـي بـه في المستشـفى.. هـل أنـا في الجنـة الآن؟ مـا هـذا الجـمال كلـه! العطـر يفـوح مـن كل اتجـاه، لا بـد أننـي في الجنـة.

قال ذلك ثم غفت عيناه إلى الأبد.

مات أحمد إذن، وترك زهرة ذات الستة عشر ربيعا ذابلة، مرتبكة، حائرة، لا تدرك حقيقة الموت أو الحياة.

وخزة أخرى في قلب زهرة عندما سمعت أبا محمود يقول:

الشاب عمره ٢٥ عاماً!

فيعود شريط الذكريات من جديد، وصوت أمها يتردد في رأسها:

- زهرة يا ابنتي، لقد سألت والدك الآن، عريسك عمره ٢٥ عاماً واسمه أحمد.

- لكنه كبير يا أمي!

-اصمتي يا بلهاء، سيعاملك كابنته فيدلّلكِ. هيا، اذهبي، وارتدي أجمل ما لديك بسرعة، قبل أن يأتي الضيوف.

واحترت في نفسي؛ أي ثوب ألبس يا ترى؟ أألبس ثوبي البني ذا التنورة الواسعة، ربما تكون عينا عريسي أحمد بنية، وواسعة، أم ألبس ثوبي الأصفر؟ هل أحمد أشقر يا ترى؟ ثوبي الأحمر ذو العروق الخضراء جميل أيضاً. كم طول أحمد؟ هل لديه ذقن؟ هل سيحبني ويهتم بي؟ هل سيفعل كما يفعل الأزواج في أيامهم الأولى: يمسكون أيدي بعضهم البعض في السوق؟ إن اللون الأبيض يليق بذلك، بهذا الشكل من العلاقة، أم أنه سيؤلم قلبي ويتشاجر معي باستمرار، كما يفعل جارنا البغيض مع امرأته كل يوم فتصير علاقتنا سوداء؟ امممم.. حسناً، سألبس ثوبي ذا الألوان العديدة التي تحمل كل الصفات للعريس مجهول الملامح، بعدها أستطيع أن أقرر ما لون الثوب الذي سألبسه لبقية حياتي! هل هو قاتم أم زاهي اللون يا ترى؟ ليتني أكبر بعض سنين أخرى وأختار زوجي الزاهي الملائم لعمري بنفسي .

ها قد أتت الوخزة العظمى مصاحبة لقول أبي عدنان:

الشاب يعمل عند أبي مصطفى الحداد، وأجره لا بأس به، لذلك أعتقد أنه يستطيع أن يصرف على ابنتنا عندما يتزوجها.

فيرد أبو محمود:

وهكذا سوف ترتاح زهرة من مصاريفها، أنا متأكد أنها ستوافق على هذا الزواج؛ فقد تحملت نفقتها كل هذا الوقت حتى صارت في الثلاثين، بعد أن تزوج ابنتها تتزوج هي إن أرادت.

ويعلق عيسى:

حسناً، لقد عرضت عليها الزواج بي ألف مرة، قلت لها سوف أهتم بك وبابنتك بعد وفاة أخينا الأصغر أحمد، لكنها، كما تعلم، يبّست رأسها، ولم تقبل، وبرأيي الشخصي إنها تستحق كل ما جرى لها، وتستحق تلك السمعة السيئة التي نالتها من الناس!

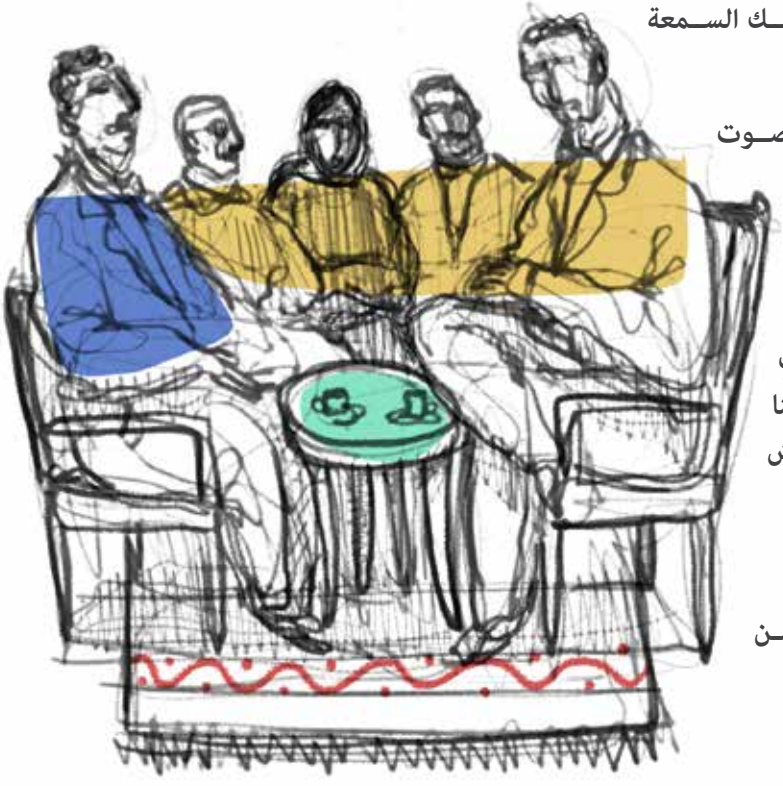

تبحر زهرة في ذاكرتها مجدداً، وتسترجع صوت السيدة عفاف، فيبدو وكأنها تعيش الموقف نفسه مرة أخرى!

تتذكر جيداً كيف صرخت عفاف في وجهها:

ماذا سرقتِ يا زهرة؟ اعترفي، نحن أدخلناكِ بيتنا، كي تعملي وتعيشي أنت وابنتك، أشفقنا عليكِ بعد وفاة زوجك، لكنك لم تصوني العيش والملح.

أقسم أنني لم أسرق، أقسم.

توقفي عن الكذب يا هذه، واخرجي حالاً من بيتي.

لطالما كانت هذه حجة حية لعفاف، كي تخرج المسكينة زهرة من بيتها، لأنها لاحظت نظرات ابنها علي المستمرة، والتي تحدق في جسد تلك الطفلة أم الطفلة ذات السبعة عشر عاماً، فخافت، خافت أن يتعلق ابنها بالخادمة التي لا تليق به وبعائلته.

في ذلك اليوم، تتذكر زهرة جيداً، لم تنتهِ القصة عند ذلك الحد، ففي وسط الشارع بينما عيناها معلقتان باتجاه السماء وهي تردد: يا الله، يا الله كيف سأعود إلى البيت دون أي طعام لابنتي، كيف سأدفع لجارتنا عبير ٥ ليرات أجرة رعايتها لابنتي اليوم؟ يا رب، قاطع صوتها صوتُ علي، وهو يتقدم نحوها بثيابه الفخمة، وعطره النفاذ.

ما بك يا زهرة، وما هذا الذي سمعته؟

لا شيء.

قالت ومشت خطوات قليلة في الاتجاه المعاكس.

انتظري، أنا أعرف الحقيقة.

ثبتت قدميها في مكانهما، وعاد إليها الأمل من جديد.

اتهمتكِ أمي بالسرقة لتبعدني عنكِ.

اتسعت عينا زهرة، وفتحت فمها من هول ما سمعت قائلة:

تبعدك عني، لم؟ لماذا تفعل ذلك؟ هل أسأت لك في يوم من الأيام؟!

لا، لا سمح الله، لكنني معجب بك، وقد لاحظت أمي ذلك، وبما أن أهلي لن يقبلوا هذه العلاقة بيننا، فعندي لك هذا العرض، فإن قبلتِه عشت أنت وابنتك حياة كريمة.

زهرة بلهفة: طبعاً طبعاً، قل هل لديك عمل لي؟

لن تحتاجي للعمل بعد الآن.

ماذا، مال دون عمل!! كيف؟

نتزوج دون علم أهلي، زواجاً عرفياً.

ماذا؟ تتزوجني.. أنا رهنت حياتي لابنتي، ولن أتزوج أبداً.

يا مجنونة، أعرض عليك ما تتمناه كل بنات الحي.

آسفة يا سيد علي، لا أستطيع قبول هذا العرض.

ابتسم علي ابتسامة صفراء، ثم صاح قائلاً:

انصرفي أيتها السارقة، يا لك من وقحة.

ماذا؟ سارقة؟ أنت تعلم الحقيقة.

اخرسي أيتها الوضيعة.

تجمع بعض المارة؛ أبو عدنان الجزار، وسائد عامل البقالة، وأم سعيد التي كانت عائدة من السوق، وغيرهم، تجمعوا ينظرون إلى زهرة ويلعنونها.

استفاقت زهرة من ذكرياتها الحزينة على صوت أبي خالد.

أبو خالد: اعتقدت أنهم سيترددون قليلاً بشأن الفتاة؛ لأن جسدها كالعود، دون أي تضاريس أنثوية، كما أنها جاهلة بأمور الزواج.

أبو محمود: لكنني أعتقد أنها بلغت، وأصبحت تدرك هذه الأمور يا أخي؛ فبنات هذه الأيام يعرفن كل شيء.

يومها ضحك الجميع إلا زهرة، وتمنى أبو خالد أن تمر الأمور على خير.

تستذكر زهرة حديث ابنتها ياسمين قبل أسبوعين، عندما نادتها غير مرة:

أمي أمي.. أمي.. أمي.

نعم يا ابنتي ما بكِ؟

فتحدق ياسمين في الأرض وقد احمر وجهها قائلة:

قالت لنا المعلمة اليوم شيئاً.. وشرحت عنه ..

ماذا قالت يا ابنتي؟؟ ما الشيء؟

أرجوك لا تغضبي يا أمي.

لمَ أغضب يا ابنتي؟؟ بالتأكيد لن أغضب؛ فالمعلمة لن تقول لكِ شيئاً خاطئاً.

لكنك منذ صغري أخبرتني أنه من العيب الحديث بهذه الأمور.

تحدثي.

ردت ياسمين بتلعثم:

شرحت لنا عن المنطقة التي أسفل البطن يا أمي. ثم أردفت: أمي أرجوكِ سامحيني حاولت أن أغلق أذنيّ قدر الإمكان.

هجست زهرة بينها وبين نفسها: هل أخبرها يا ترى أم أنها ما زالت صغيرة؟ ثم قالت مخاطبة ياسمين بحب:

حسناً، اذهبي إلى غرفتك الآن يا ابنتي. ..نتحدث عن هذا فيما بعد.

قال عيسى:

وبعد زواج ابنتها تستطيع أن تهتم بنفسها، وتجمع النقود كي تجري العملية التي شدّد الطبيب على ضرورة إجرائها.

أبو محمود:

عمليات الانزلاق الغضروفي صعبة ومكلفة، لقد أهلكت زهرة نفسها في العمل..

قبل ثلاثة أشهر، ذات ليلة، فُتح باب غرفة زهرة، وإذ بعيني ابنتها تنظر إليها معتقدة أنها نائمة، ثم يخرج فجأة صوت زفير الراحة من فم تلك الطفلة، لتعود بعدها مسرعة إلى غرفتها.

هجست زهرة في نفسها: ما بها ياسمين يا ترى؟ ماذا تفعل في منتصف هذا الليل؟ لِمَ تنظر إلي؟

نهضت ببطء، ومشت بخطى ثقيلة حتى وصلت باب غرفة ابنتها المغلق، وسمعت صوتها الخافت يردد بابتهال: الحمد لله أمي بخير، ولم تمت.. يا الله كم أنا قلقة عليها، فقد أغشي عليها اليوم من الألم، وذلك الطبيب أخافني كثيراً، فاعتقدت أنها ستموت، لكنني الآن تمعنت في حركة ارتفاع وانخفاض صدرها؛ أمي تتنفس، إذن لن تموت الليلة، أمي حيّة، يا إلهي الحمد لك كثيراً، أرجوك يا إلهي أبقِ أمي بجواري!

رددت زهرة في داخلها: يا ربي ماذا سأفعل الآن؟؟ لم أنا في هذا الموقف الآن؟؟ ثم حدقت في السقف متأملة: هل الثريا اختارت أن تتعلق بهذا السقف أم أنها عُلقت قسراً؟ هل اختار مقبض الباب هذا الباب أم أنه أُجبر على ذلك؟ إنني تائهة يا ربي ولا أريد لابنتي أن تحزن في حياتها.

قال عيسى:

لكن ابنة أخي لسانها طويل، أعتقد أنها سترفض الفكرة، وستحاول إقناع أمها بالرفض.

فرد أبو خالد:

ماذا تقول؟ حلم كل الفتيات أن

يتزوجـن، ويرتديـن فسـتان الزفـاف، ويضعـن تلـك الألـوان عـلى وجوههـن.

تغـرق زهـرة في بحـر ذكرياتهـا مـن جديـد؛ فتـاة جميلـة تضـع كحـلاً أسـود. شـفتاها مرسـومتان بلـون المرجـان. شـعرها منسـدل كخيـوط الشـمس. تلبـس فسـتان زفـاف مـن قـماش الأورجانـزا، يديـه مـن الدانتيـل المعـرق، لكـن الفسـتان طويـل عليهـا قليـلاً. رائحـة ورد الياسـمين الـذي تحبـه كثـيرا تفـوح منهـا. عروقهـا بـارزة لكـن مسـيطر عليهـا؛ فهـي مغطـاة. أظافرهـا الاصطناعيـة تغطـي جـزءاً كبـيراً مـن أصابعهـا. توشـك عـلى السـقوط ثـم تمنـع نفسـها. طرحتهـا مـن قـماش الفسـتان نفسـه، ومزينـة بخـرز الكريسـتال. تجلـس عـلى أريكـة بنفسـجية في غرفتهـا المزينـة بصـور أمـيرات ديـزني!

قال أبو محمود:

لكن هذه الفتاة عندها أحلام وطموح تدافع عنهما دائماً.

فرد عيسى:

آه، صحيح تريد أن تصبح ممرضة، تمتلك الحلم نفسه الذي حلمت به والدتها.

أبو خالد:

والدتها أساساً لا تكف عن الحديث عن حلمها السابق أمامها.

عيسى:

لكن هذه الفتاة في النهاية سيحصل لها ما حصل مع أمها .

تعـود الذاكـرة بزهـرة مـن جديـد، تعـود إلى ليلـة ثـاني أيـام العيـد، قبـل زفافهـا بأسـبوع تمامـاً، عندمـا عـادت فرحـة إلى البيـت، ركضـت نحـو أمهـا قائلـة:

أمي. أمي، انظري ماذا اشتريت؟ أنا سعيدة جداً.

ماذا اشتريتِ يا ابنتي؟

اشـتريت ألعـاب الممرضـة؛ انظـري، انظـري، فيهـا جميـع الأدوات التـي يسـتخدمها الممـرض، لقـد أنفقـت كامـل عيديتـي يـا أمـي، لكننـي مبسـوطة لأننـي اشـتريت شـيئاً أحبـه، وأريـد أن أكونـه في المسـتقبل.

أتى صوت أبيها معه، أحدهما يحمل الآخر:

ما هذا يا فتاة؟ ما الذي أراه؟ ما هذه القطع البلاستيكية الملونة؟

هذه ألعاب الممرضة يا أبي؟

ألعاااب!!

زهرة وقد اهتز كيانها:

أجل. أجل يا أبي، ألعاب.

أعطني إياها. أعطني.

تتذكر زهرة حجم حزنها في ذلك اليوم، والدموع تسيل من عينيها العسليتين.

أمسك الأب بالممرضة وأدواتها، وحطمها أمام عيني تلك الصغيرة الباكية، فتحطمت أحلامها وتناثرت تحت قدميه.

أبو محمود: إذا تأخرنا شهراً آخر سيبدأ أهل القرية بالحديث عن ابنتنا.

أبو خالد: وربما يؤلفون كلاماً ويؤولونه عن شرف الفتاة؛ لأنها لم تتزوج حتى الآن، وتصرّ أن ترفض العرسان.

عيسى: هذه العادات والتقاليد، علينا إذن الإسراع بالأمر، وإلا سيتكلم عنا الجميع، وسنصبح لقمة في فم من يسوى ومن لا يسوى.

أبو خالد: فوراً سيتم الأمر.

تمعن زهرة النظر في ابنتها: ممشوقة القوام، واسعة العينين، وردية الشفاه، نحيلة الخصر، ذات الشعر الأسود اللامع، أظافرها ملونة باللون الأحمر، رائحة عطر شانيل المفضل لها تفوح منها، ترتدي فستان زفافها الأبيض المزين باللؤلؤ، إنه مناسب لها تماماً وكأنه صمم لها خصوصاً. تجلس على اللوج بجانب عريسها الذي يتصبب العرق من وجنتيه، وتهتز رجلاه بسرعة من الارتباك! يا للهول لقد لبس جراباً أسود قصيراً بالفعل كما طلبت منه ياسمين! لا تقلقي يا ابنتي إني أسمع صوت أنفاسك السريعة، وأشعر بدفئها من هنا، على بعد عشر بلاطات منك، لا تخافي.

فنية الدي جي: فليتفضل العريس والعروس ليرقصوا رقصة السلو الخاصة بهما على أغنية أمير يزبك «اسمحيلي من الرقصة الأولى»، فتبدأ أنغام الموسيقى، ويبدأ العريسان بالرقص: «اسمحيلي من الرقصة الأولى، وصلك إحساسي فيكي، تسلميلي ما أحلاكي، التوب الأبيض شو محلاكي، رح كفي حياتي معاكي، قضي عمري غنّج فيكي ...»

تفكر زهرة في نفسها: يا الله ما أجملهما معاً، ابنتي الممرضة وصهري المهندس، إنهما لائقان لبعضهما البعض جداً، والحب يشع من عيونهما. أنا متأكدة أنهما سيعيشان حياة رائعة، وأحفادي سيكونون جميلين مثلي، مثل جدتهم زهرة. تقول ذلك وتبتسم وشريط الذكريات يعود بها إلى ذلك الزمن حيث دخلت إلى الصالون وقد اجتمع أعمام ياسمين، فقالت لهم بصوت قوي وواضح:

ابنتـي لـن أزوجهـا مهـما كلفنـي الأمـر، سـأربيها وأعلمهـا، وأحقـق لهـا أحلامهـا، وأزوجهـا مـن شـخص يليـق بهـا.

أبو خالد: ولكن..

زهرة : إنها ابنتي أنا، ابنة تزهر؛ اتركوها تزهر.

تزفر زهرة زفير الراحة، والمغني يقول:

«ونعمر بيت السعادة»

فتقول، وهي تمسح وجهها: الحمد لله.

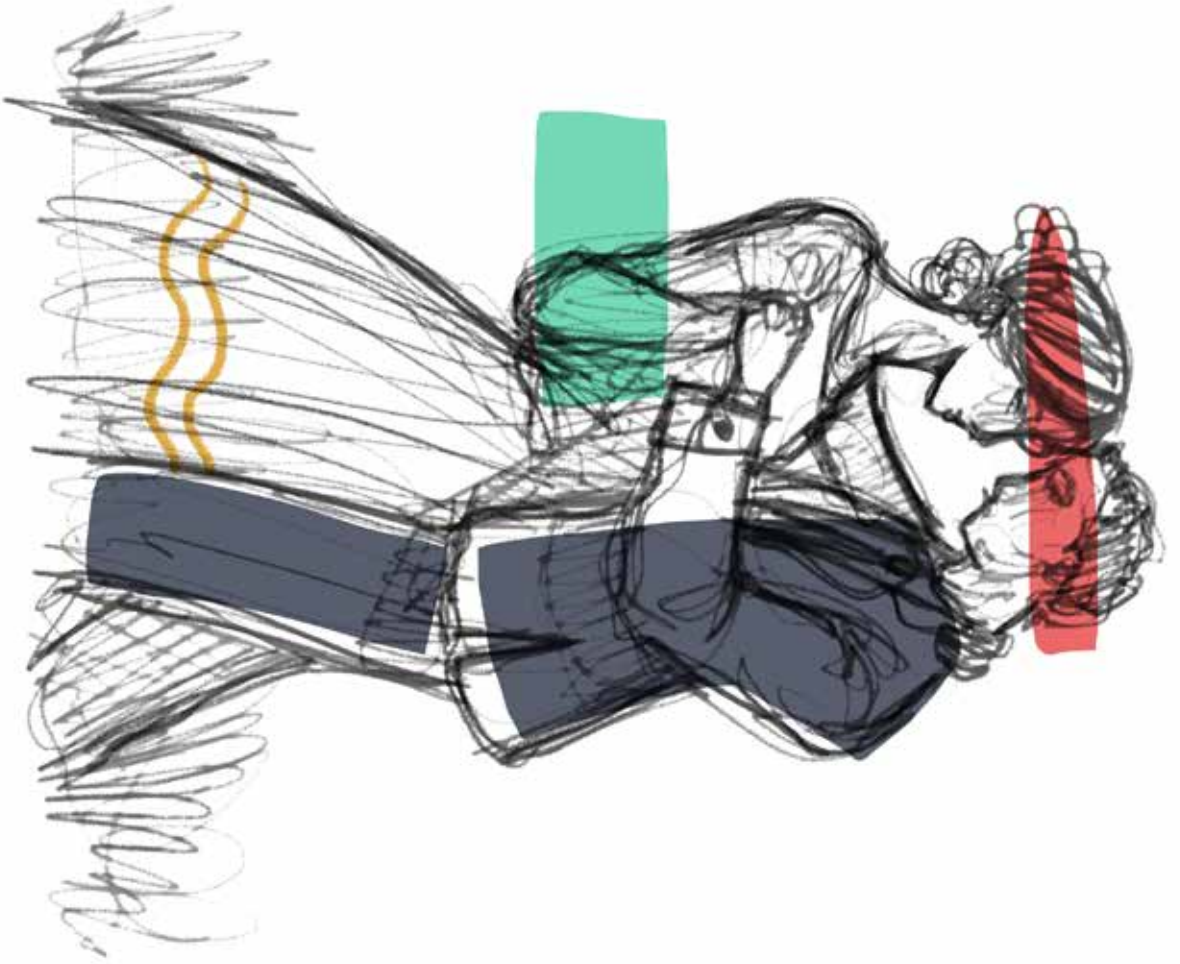

البريقَ والنور

قصة للطالبة

رتيبة أسامة الفاخوري
مدرسة شهداء الحرم الإبراهيمي / الخليل

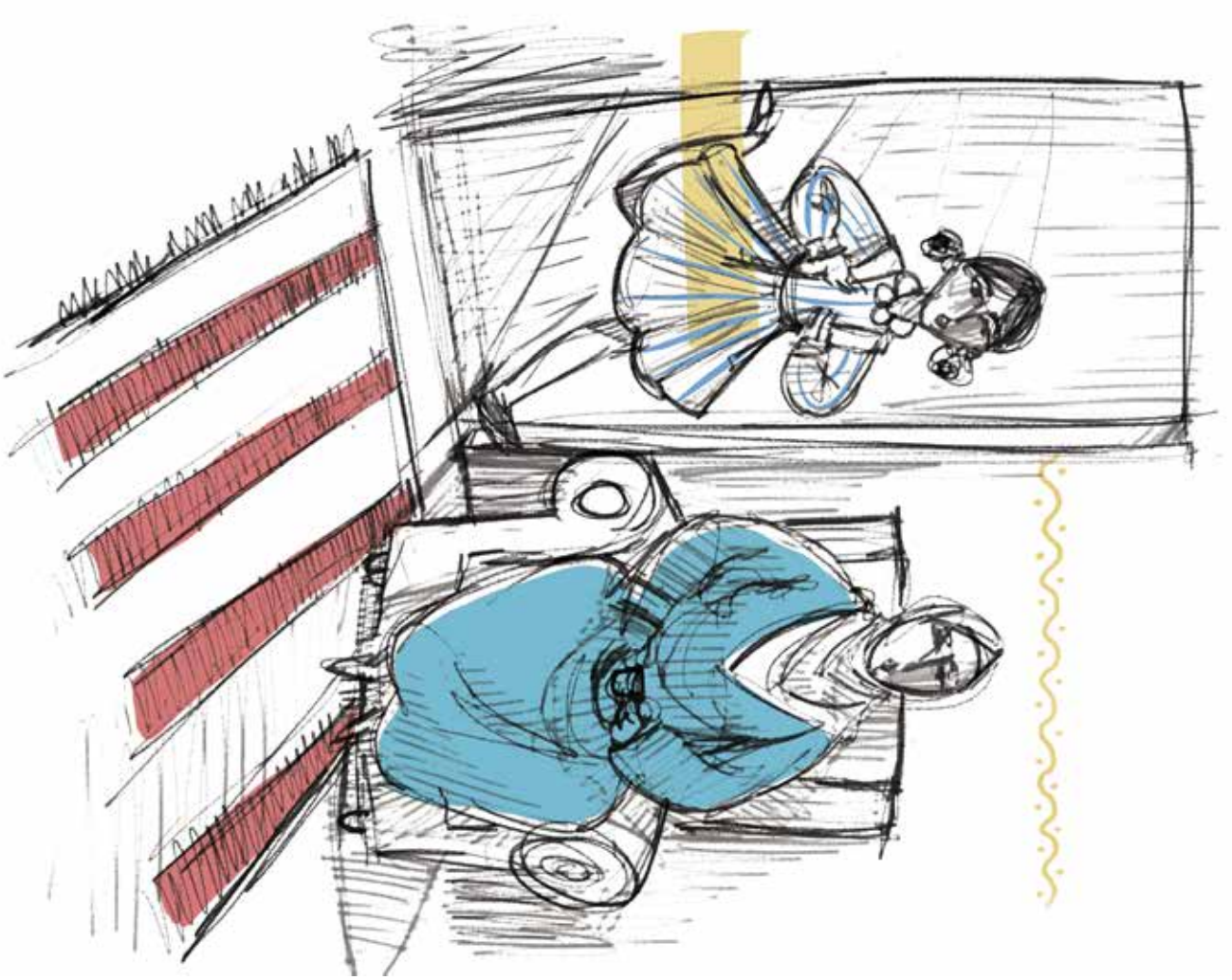

اسمي بَريق، برّاقة وجميلة مثل اسمي، عندما ولدت كان شعري أصفر براقاً، وعيناي عسليتين لامعتين، وبشرتي بيضاء كالثلج، فسماني أبي «بريق». كان جميع أهل الحي يدعونني ببريق البرّاقة، ودائما ما يصفونني بالجميلة لجمال جسدي النحيف الذي يشبه لعبة الباربي، ولجمال الملابس التي كانت تشتريها لي أمي وتناسب قوامي. كنتُ مرحة ومحببة لدى الجميع. أحب الأعمال التطوعية وتقديم المساعدة للناس، ولكنني كنت أكره المدرسة، ربما لأنني كنت غير مجتهدة ولا أريد أن أتعب نفسي بالدراسة، وهذا بالضبط هو ما دفعني ذلك للموافقة على أول عريس يطرق باب بيتنا، لاعتقادي بأنني سوف أتخلص من المدرسة التي كنت أنعتها باللعينة، لكني، كما سترون، كنت مخطئة.

في يوم عدتُ من المدرسة، وما إن فتحت الباب حتى قالت لي أمي: إنه يوجد لدينا ضيوف. اعتقدت بأن الضيوف إما أن يكونوا جارتنا أم أحمد، أو السيدة خديجة، التي لا تسمح لأولاد الحي أن يقطفوا من ثمار شجرة المشمش المثمرة في حديقتها. دخلتُ إلى غرفة الضيوف ورأيت امرأة غريبة، أراها لأول مرة في حياتي، قلتُ في نفسي لربما تكون صديقة قديمة لأمي، سلمت عليها، لكنها لم ترفع بصرها عني، كانت تحدق بي من الأعلى إلى الأسفل. لم أهتم بها وذهبت لتبديل ملابسي، وما إن بدلت ملابسي حتى ذهبَت. سارعت إلى أمي أسألها عن هوية هذه المرأة، فقالت لي أمي إنها جاءت لتطلب يدي للزواج من ابنها!

حقاً! تفاجأتُ.

تناولت الغداء، وأنا أفكر في الأمر، ودقات قلبي ترن بين ضلوعي كجرس الهاتف، هل سيوافق والداي أم سيرفضان؟ بالنسبة لي كنت أفضّل الموافقة حتى قبل أن أعرف من العريس، وما مواصفاته، كان كل همي أن أتخلص من المدرسة.

عـاد أبي مـن عملـه، وحـضّرت لـه أمـي طعـام العشـاء. كنـا أنـا وأخـواي الصغـيران حسـام وسـامي نجلـس ونشـاهد التلفـاز. أتى أبي وأمـي وجلسـا بجوارنـا، وبـدأت أمـي بـسرد القصـة لأبي الـذي قـال بـدوره قـال إنهـم اتصلـوا بـه. سـألته أمـي عـن وضعهـم وسـمعتهم بـين النـاس، فقـال: إن سـمعتهم طيبـة، وقـال أيضـاً: إنهـم كرمـاء، ومـن عائلـة غنيـة، وتحـدث بتفاصيـل كثـيرة كلهـا تعـداد لفضائلهـم. سـألته أمـي عـن رأيـه في الأمـر فقـال لهـا إن الـرأي، وأشـار نحـوي، لبريـق.

كان الجميع يحدق بي، حين قلت:

كما تريد يا أبي.

وفي داخلي كان هناك صوت يصرخ بقول نعم أريد.

قال أبي:

نحن لا نجبرك، إن كنت لا تريدين ذلك فقولي.

أخفضت رأسي حياء، وقلت له كما تريد، فقال:

إذن، فلنتـوكل عـلى اللـه، وبـدأت أمـي بالمباركـة، حتـى إخـوتي الصغـار رددوا ذلـك مـن ورائهـا وهـم يضحكـون. ابتسـمت لهـم وذهبـت إلى غرفتـي.

أحسسـتُ أن قلبـي يرفـرف مـن شـدة الفـرح، كنـتُ سـعيدة جـداً بأننـي سـوف أتخلـص مـن المدرسـة، وأننـي سـوف أتباهـى بالـزواج أمـام صديقـاتي، وأغـراني ثـوب الزفـاف، وسـيارة زوجـي المرسـيدس، وبيتـه الكبـير، وشـهر العسـل في ماليزيـا، واعتقـادي بأننـي سـأحظى بالعديـد مـن الهدايـا والملابـس، وبأنـه سـيأخذني حيثـما أريـد.

في اليـوم التـالي، جلسـنا أنـا وإليـاس كي نتعـرف عـلى بعضنـا، كان إليـاس الولـد الوحيـد لأمـه بـين ثـلاث أخـوات متزوجـات. عمـره خمسـة وعـشرون عامـاً. طويـل القامـة، شـعره أسـود، ذو لحيـة خفيفـة. عينـاه سـوداوان. يعمـل في شركـة للسـياحة والسـفر، ويحـب المـزاح والضحـك.

تمـت خطبتـي مـن إليـاس، وأثنـاء فـترة الخطوبـة كنـتُ سـعيدة جـداً؛ فقـد كان إليـاس يحـضر لي العديـد مـن الهدايـا والحلويـات، وأنـا بـدوري كنـتُ أذهـب إلى المدرسـة، وأتباهـى أمـام صديقـاتي بمـا أحـضره لي، فـأرى نظـرات الغـيرة والحسـد في عيونهـن، وكان هـذا يـرضي غـروري.

كان علينـا أن نحـدد موعـداً قريبـاً ليـوم الزفـاف، وبدأنـا بالتجهيـز أنـا وعائلتـي وعائلـة زوجـي لمتطلبـات الزفـاف، وكان هـذا يتطلـب منـا أن نذهـب مـراراً إلى السـوق.

كان علينـا أن نذهـب لاختيـار ثـوب الزفـاف. لقـد كان هـذا الثـوب، منـذ طفولتـي، حلمـي الأكـبر! عندمـا دخلنـا إلى المحـل كان هنـاك العديـد مـن الموديـلات والتصاميـم الجميلـة، فمنهـا النفّـاش والـبرّاق، ومنهـا ذو الأشرطـة الملوّنـة. احـترت أيهـا سـأختار. الجميـع، أهـلي وأهـل زوجـي، كانـوا يقولـون لي أن أختـار مـن النـوع الـبرّاق، حتـى أظـل قريبـة لاسـمي، لكنـه لم يعجبنـي كثـيراً، فاخـترتُ ذا الأشرطـة الحمـراء. لقـد وجـدت في النهايـة مـا أعجبنـي، أو عـلى الأقـل هـذا مـا أقنعـت نفـسي بـه، كنـت أريـد أن يتـم كل شيء وبسرعـة، كنـت كأني أسـابق الزمـن ولا أعـرف لمـاذا ولا إلى أيـن؟

في صبـاح يـوم الزفـاف، ذهبـتُ إلى صالـون السّـيّدات كي أصفّـف شـعري، وأضـع المكيـاج وطـلاء الأظافـر، وأضـع بعـض الحنّـاء عـلى يـديّ، وبعـد أن انتهيـت مـن ذلـك لبسـت ثـوب الزفـاف، وبينـما كنـتُ أمسـك بقنينـة العطـر التـي اخترتهـا التفـت إلى المـرآة لأرى نفـسي في الثـوب الأبيـض ورددت في نفـسي غـير مصدّقـة:

يااااااه! سوف أتزوج!

أتى إليـاس بعـد أن انتهـى هـو الآخـر مـن الحلاقـة، وارتـداء ملابسـه، ليوصلنـي إلى البيـت. وضعـت العطـر والطرحـة وخرجـتُ مسرعـة، تحمـل إحـدى العامـلات في الصالـون ذيـل ثوبي.

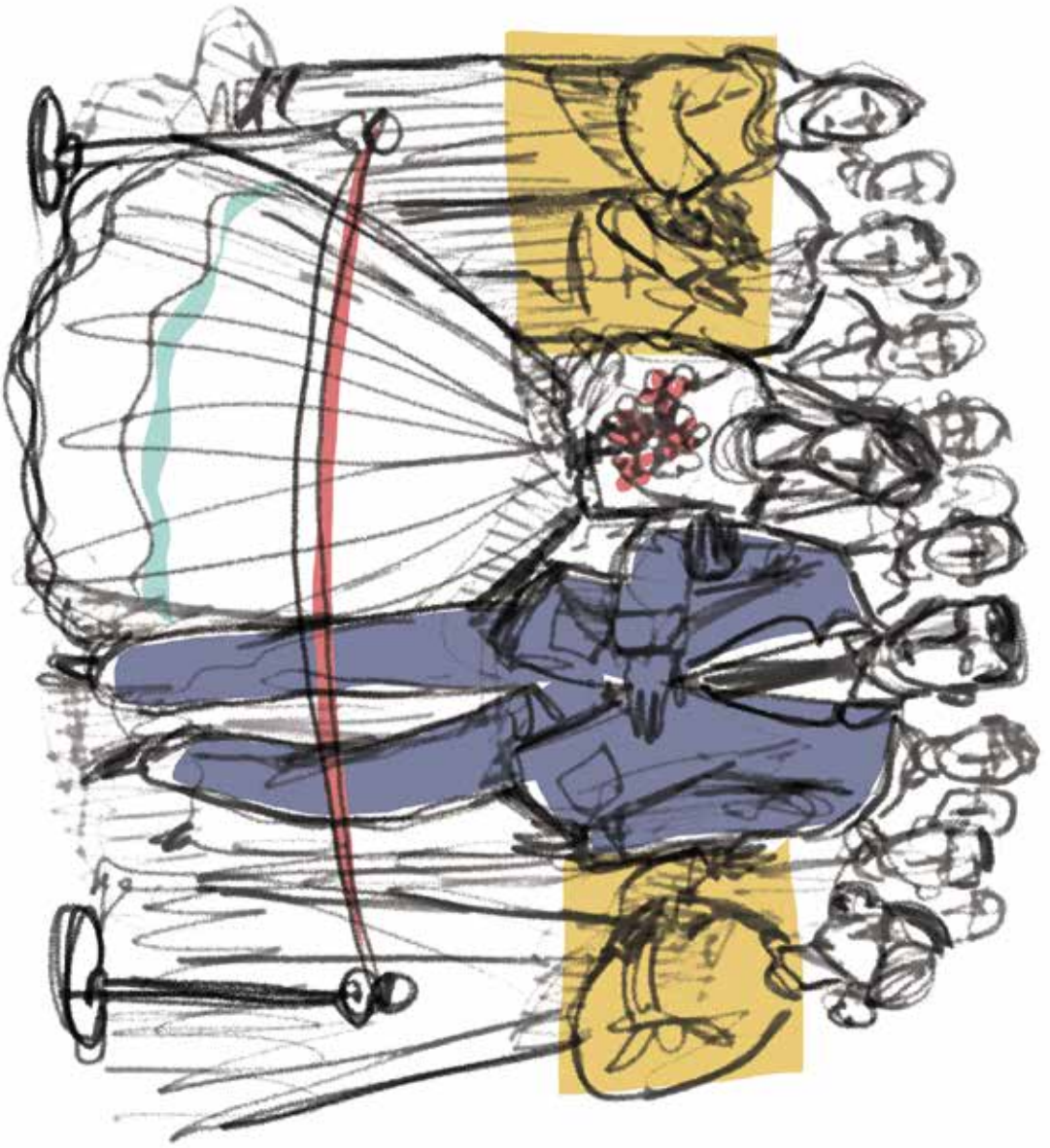

وصلتُ البيت، وما إن دخلت حتى كان جميع الحاضرين يحدقون بي، وبدأت المباركات والتهاليل والزغاريد تعلو، ثم أتى أهل العريس ليأخذوني، لم أكن أتوقع أنني سأبكي هكذا؛ لقد بكيت كثيراً، لأنني سوف أترك أمي وأبي وأخويَّ الصغيرين حسام وسامي، وسأترك البيت الذي نشأتُ فيه منذ صغري، ولكن أمي وصديقتي إخلاص والمدعوين قاموا بتهدئتي، فخرجتُ من البيت وركبت أنا وإلياس السيارة، وتوجهنا إلى قاعة اللؤلؤ للأفراح. بدا ذلك كأنه في عالم الخيال.

كانت القاعة أجمل من جميع القاعات التي زرتها في حياتي؛ فقد كانت من الخارج مثل القصر، ومن الداخل مليئة بالطاولات المغطّاة بالقماش الحريري، مليئة بالأضواء الملوّنة، أما مقعدي أنا وإلياس فكان لونه أبيض ناصعاً، وكبيراً جداً مثل عرش الملوك، وكان هناك أيضاً كعكة مكونة من خمس طبقات على قمتها يتربع مجسم على شكل عروسين.

قطعنا الشريط الأحمر، ودخلنا إلى المنصّة، وبدأنا نرقص، ذراعه يحيط بخصري، ويداي تطوقان عنقه، ورقصت مع صديقاتي، وخصوصاً صديقتي إخلاص؛ فقد كانت، وما زالت، أعز صديقة لديّ، ورقصت مع بنات خالاتي وعماتي وبنات أخوالي وأعمامي. رقصت مع الجميع، وكان هذا ما زال في عالم الخيال.

انتهى الزفاف، وذهبت إلى بيت زوجي، وقد أتت أمي معي، فمن المهم أن تذهب أم العروس معها في ليلة الدخلة! هكذا كنت أسمع من قصة زواج إلى أخرى.

في اليوم التالي، بدأنا نجهز حقائب السفر أنا وإلياس كي نذهب إلى ماليزيا، كانت طائرتنا في الساعة التاسعة صباحاً، انتظرنا قليلاً ثمّ ركبنا الطائرة، إنها المرة الأولى في حياتي التي أركب فيها طائرة، لقد كنت خائفة، ولكن منظر البحر من بعيد، والطيران فوق الغيوم، جعلا خوفي يقلّ بعض الشيء.

قضينا في ماليزيا قرابة الشهر، لقد كنا سعيدين جداً أنا وإلياس، كنا نذهب إلى البحر دوماً، ونركب السفن والقوارب، ونتناول طعام الفطور والغداء وأحيانا العشاء في أماكن تطلّ على البحر، لقد كنتُ، وما زلت، أحب البحر كثيراً، ولم أكن مشتاقة قط إلى المدرسة، وكنتُ عندما أذكرها أبتسم وأحمد الله أنني تخلصت منها، لكن الأيام مرت وسرعان ما حان وقت العودة إلى البيت.

وبدأت الحكاية

كنا أنا وإلياس متوافقين ومتفاهمين في حياتنا؛ كان إلياس يسمح لي بزيارة صديقاتي وأهلي مرة كل أسبوع، لكن حماتي لم يكن يعجبها الأمر، وبدأت بالتدخل في حياتي أنا وإلياس، بدأت تمنعني من الخروج مع صديقاتي وتتحكم في لباسي، ولم تكن تدعني أذهب إلى بيت أهلي إلا مرة واحدة في الشهر، وكانت تطلب مني أن أرتب البيت، وأغسل الصحون، فكنت أشعر كأنني خادمة، كنت أخبر إلياس بذلك، ولكنه لم يكن يفعل شيئاً، لأنها أمه، وكان لا يستطيع عصيان أوامرها وكل ما تقوله. مرّت الأيام، ومرّ شهر، وشهران، وثلاثة، ولم أعد أستطيع التحمل. ذهبت إلى بيت أهلي، وأخبرت أمي بما يحصل معي، لكنها قالت لي:

افعلي كل ما تقوله لكِ، ولا تتذمّري أمامها من العمل، لئلا تخسري زوجكِ.

سمعتُ كلام أمي، وأجبرتُ نفسي على تحمل ذلك.

عدتُ إلى بيتي، وجلستُ أتذكّر كَم كنتُ سعيدة بهذا الزواج، بالأحلام التي بنيتها، والأماكن التي كنت أتمنى زيارتها، ولم أحظ إلا بعشرٍ منها! وبدأتُ أتذكر صديقاتي، وأيام المدرسة، والمشاغبة في الصف، والاستيقاظ باكراً الّذي كنا نكرهه، والامتحانات والواجبات التي كنا دوماً نتذمّر منها، وفي هذه اللحظة بدأت أشعر بالندم.

بعد مرور عام

بـدأت حـماتي تضغـط عـلى إليـاس كي يتـزوج بامـرأة ثانيـة مـن أجـل إنجـاب الأطفـال، لكـن إليـاس كان يرفـض، متعلـلاً: مـازال الوقـت باكـراً عـلى الإنجـاب، لكـن أمـه قالـت لـه إنهـا لـن تكلمـه، وسـتغضب عليـه إن لم يتـزوّج، وبالفعـل بقيـت تتجاهلـه مـدة شـهر تقريبـاً وألبـت أخواتـه عليـه فقاطعنـه؛ لم يتحمـل إليـاس هـذه المعاملـة مـن أمـه وأخواتـه، وقـرر أن ينصـاع لهـن بالرغـم مـن حبـه لي.

عندمـا قـال لي إليـاس إنـه وافـق عـلى الـزواج بامـرأة ثانيـة طلبـتُ منـه الطـلاق كي أتخلـص مـن كل هـذا، مـن حـماتي، وأوامرهـا البغيضـة، والملـل الهائـل الـذي كنـت أشـعر بـه في هـذا البيـت الـذي كان عشـاً للحـب والأحـلام والبريـق، وأشـياء أخـرى .. ولكـن إليـاس رفـض ذلـك.

ذهبتُ إلى أهلي وأخبرتهم، كانت المرة الأولى التي أفعل بها ذلك، وقلت لأبي إنني أريد الطّلاق، لكن أبي حدّق بي، وطلب ألا أكرر هذه الكلمة مرة أخرى! قلتُ في نفسي حينها: ما هذا الطلاق الذي يخاف الجميع منه، ويخشى أن يفعله، كله عبارة عن حدث قصير: زوجة تترك زوجها أو العكس، وماذا في ذلك! بدلاً من مناقشة ما قلته قرر والداي الذهاب إلى بيت حماتي، لفهم الموضوع أكثر.

قالت حماتي:

نحن نريد حفيداً، وابنتكم واضح أنها لا تنجب، بإمكانها أن تظل في بيتها معززة مكرمة، لكنني أريد طفلاً أحمله بين ذراعي قبل أن أموت!

حاول أبي إقناعهم بأن مدة سنة قصيرة، وأن هناك فرصة للإنجاب، وأن الله كريم، ومثل هذه الأشياء، ولكنهم لم يقتنعوا، بالأحرى حماتي لم تقتنع.

الوقت يمرّ

ذهبت حماتي لرؤية الفتاة التي اختارتها لإلياس، وقمتُ حينها بالاتصال بأبي كي يأخذني إلى البيت، لأقضي بعض الأيام عندهم بينما تهدأ أعصابي وتروق نفسي، وكان إلياس يراسلني ويقنعني بأنه سوف يبقى يحبني، ولن ينشغل بها عني، وقال أيضاً، وبدا هذا مفجعاً

لا يمكـن أن يحتملـه «البريـق»، بـأن موعـد الخطبـة سـيكون بعـد أسـبوع.

قضيـت في بيـت أهـلي أسـبوعاً ونصـف الأسـبوع تقريبـاً، ثـمّ رجعـتُ إلى بيتـي بعـد أن تمّـت الخطوبـة، لم تتغـيّر معاملـة إليـاس لي، بـل عـلى العكـس أحسسـتُ بأنـه أصبـح يهتـم بي أكـثر مـن قبـل، ولكـن مـا الفائـدة فقـد دخلـت حياتـه فتـاة أخـرى!

بينـما كان إليـاس نائمـاً، انتابنـي الفضـول لأقـرأ رسـائله لهـا، فأمسـكت هاتفـه، ولحسـن حظـي لم يكـن هنـاك كلمـة مـرور، فدخلـتُ إلى الرسـائل، ورأيـت كـماً هائـلاً مـن القلـوب والرسـائل الغراميـة، أقفلـتُ الهاتـف ووضعتـه مكانـه، لئـلا يلاحـظ إليـاس شـيئاً، وأجهشـت بالبـكاء. اسـتيقظ إليـاس، وسـألني:

لماذا تبكين يا بريق؟

قلتُ له إنني رأيتُ حلماً مزعجاً، شعرتُ بأنه لم يصدقني، ولكنه تظاهر بذلك، ونام.

كان إليـاس يذهـب إلى سـميرة، خطيبتـه، مـرة في الأسـبوع، وكان غالبـاً مـا يذهـب إلى هنـاك يـوم الجمعـة، اليـوم الوحيـد الـذي لا يذهـب فيـه إلى العمـل، فيتركنـي وحـدي في البيـت. يذهـب إليهـا محمـلاً بالهدايـا والملابـس، ويعـود إلى البيـت مسـاء، ولا يجلـس معـي إلا قليـلاً، ومـن ثـم يخلـد إلى النـوم.

وذات يـوم عـاد إليـاس إلى البيـت، كنـتُ حينهـا في المطبـخ، وعندمـا رأيتـه يدخـل الصالـون تراجعـت بخطـواتي لئـلا يـراني وأنـا أراقـب مـا كان يحملـه. حضَّرتُ لـه طعـام العشـاء، ثـم ذهـب ليبـدل ملابسـه، فأسرعـتُ إلى الصالـون، وقـد كان هنـاك كيـس كبـير خلـف البـاب، فتحتـه ورأيـتُ بداخلـه كعكـة مكتـوب عليهـا: يـوم ميـلاد سـعيد سـميرة، وبجانـب علبـة الكعـك عقـد مـن الذهـب وفسـتان، شـعرتُ بالغـيرة كثـيراً، لكنـي بيديـن مرتبكتـين أرجعـتُ كل شيء مكانـه، ومـا إن التفـت ناحيـة البـاب حتـى رأيـت إليـاس يقـف بالبـاب ويحـدّق بي، لم أعـرف مـاذا أفعـل؟ نظـرتُ إليـه، وأسرعـتُ إلى غرفتـي. لم يلحـق بي إليـاس كـما توقعـت، بـل حمـل الهدايـا وواصـل طريقـه إلى سـميرة، شـعرتُ حينهـا أنهـا أخذتـه منـي، وأنـه لم يعـد يهتـم لأمـري، وأني وحيـدة في هـذا الكـون! جلسـتُ أبـكي، ومـن ثـم ذهبـتُ إلى أهـلي، ومـا إن وصلـتُ حتـى اتـكأت عـلى ركبتـي أبي أتوسـله بـأن أتطلـق مـن إليـاس، تفاجـأت، لقـد دفعنـي قائـلاً:

أنتِ مجنونة، أنا ليس لدي بنات تتطلق، ولا تكرري هذه الكلمة مرة أخرى.

إنها المرة الأولى في حياتي التي يعاملني فيها أبي معاملة كهذه، وقفت أنظر إليه، ولا أصدق أنه أبي، ثم خرجتُ من البيت، وأمي تلحق بي ويسبقها صوتها.

لم أذهب إلى البيت، بل مشيت ومشيت ومشيت بلا توقف، حتى وصلت البيت ولم يكن إلياس هناك، كان ما زال عند سميرة!

في اليوم التالي اجتمعت العائلة في بيت حماتي، اجتمع الكل حتى سميرة، كنا نجلس جميعنا، ونتحدث، وقد كانت حماتي تضايقني ببعض الكلام، فمثلاً كانت تقول، على مسمع مني، لسميرة إنها سوف تنجب الأطفال، فتبعث الفرح في البيت الذي لم يدخله الفرح حتى الآن!

الأحداث تتكرر

مرت فترة قصيرة، حتى قررت حماتي أن لا داعي لإطالة الخطوبة، فسرعان ما تحدد يوم الزفاف، وبدأت التجهيزات، فتذكرت ما حصل قبل عام، الأحداث تتكرر بسرعة وبالطريقة نفسها، حتى العريس هو نفسه، لكن العروس فقط تغيرت!

قبل الزفاف بأسبوعين تقريباً اضطررنا لنقل حماتي إلى المستشفى بسبب تعب مفاجئ أصابها، وقد أتت سميرة إلى المستشفى، سلمتُ عليها ولم أظهر لها حزني، ثم جلسَت بجانب إلياس ويدها تربت على كتفه، تظاهرت بعدم رؤيتهم، تظاهرتُ بأنني أمسح حذائي، فأخفضت رأسي نحو الأرض، فسقطت دموعي على ظاهر قدمي.

ساءت حالة حماتي، ولم أعرف هل كنت حزينة لاعتقادي بأن الله ينتقم منها لأنها فعلت بي ما فعلت، لا بل كنت حزينة وكفى، كأني حزينة منذ أن خلقني الله، كأني لم أكن بريق التي تبرق، بقينا إلى جانبها طوال الوقت، ولم يتركها إلياس ولا أخواته دقيقة واحدة.

وفي يـوم، عندمـا اسـتعادت حـماتي بعـض وعيهـا، طلبـت أن تجتمـع العائلـة كلهـا باسـتثناء سـميرة، بـدأت تتفـوّه بـكلام يوحـي بأنهـا سـوف تفـارق الحيـاة، فتـوصي أبناءهـا ببعضهـم البعـض، وتقبـل رؤوسـهم واحـداً تلـوَ الآخـر، إلى أن جـاء دوري، اندهشـتُ في تلـك اللحظـة مـما قالتـه وهـي تشـد عـلى يـديّ:

بريق، اعتني بإلياس جيداً، وعوضيه بحنانكِ عن حناني، وسامحيني على كل شيء فعلته بك.

ثـمّ فاضـت روحهـا إلى خالقهـا، لحظـات الحـزن والـصراخ والبـكاء في المستشـفى حولهـا تـكاد لا تُمسـح مـن ذهنـي، لقـد كانـت هـذه اللحظـات أسـوأ لحظـات عشـتها في حيـاتي كلّهـا، لقـد انهـار إليـاس، ولم أكـن أعـرف مـاذا أفعـل لتهدئتـه، إنهـا المـرة الأولى التـي أراه يبـكي فيهـا مـذ عرفتـه، فتركتـه يبـكي ويهـدأ وحـده كأني أتـبرأ منـه، أو أسـقط في حـزني الخـاص!

الأمور تتغير

ومـرّت أيـام العـزاء الثلاثـة، وحـدث مـا لم أكـن أتوقعـه.

لقـد تعبـتُ تعبـاً شـديداً في ليلـة ثالـث أيـام العـزاء، فـأصرّ إليـاس أن يصطحبنـي إلى المستشـفى، وتفاجأنـا؛ لقـد قـال الطبيـب بأننـي حامـل!

لم نكـن نعـرف أنفـرح أم نكمـل حزننـا؟ بالطبـع فرحنـا كثـيراً، ولكننـا بالطبـع لم ننـس ألمنـا عـلى فقـد حـماتي التـي كانـت تتمنى أن تسـمع

هـذا الخـبر، كـم تمنينـا لـو أنهـا سـمعته قبـل أن تفارقنـا! لم أفكـر كثـيراً بمـا سـيحدث بـين سـميرة وإليـاس، فقـد انفصـلا، فجـأة، ودون مقدمـات سـوى خـبر حملـي بهـذا المولـود! لم أدرِ هـل أتعاطـف مـع سـميرة، أم أشـمت بهـا، هـل أغضـب مـن إليـاس، أم أقـدر عودتـه لي!

لكـن الجميـع مـن حـولي كان فرحـاً، أمـا أنـا فاختلـط فرحـي بالخـوف، وحاولـتُ اسـتيعاب أنـه يوجـد جنـين في بطنـي، ثـم فكـرتُ بـأن العـودة إلى المدرسـة أصبحـت شـبه مسـتحيلة! لكـن، لمـاذا سـأعود إلى المدرسـة، ألم أتـزوج لأهـرب منهـا؟!

لكـن الأشـياء تتغـير، وكذلـك المشـاعر والمواقـف، حصـل ذلـك خـلال سـنة فقـط، قلـت لإليـاس بأننـي أريـد العـودة إلى المدرسـة، لكنـه رفـض ذلـك، خصوصـاً بسـبب الحمـل! قـال لي إنـه مـن الممكـن أن تصطـدم بي فتـاة ويتـأذى الجنـين، وقـال كيـف سـيكون مظهـركِ وأنـتِ حامـل وتذهبـين إلى المدرسـة؟ وسـألني، وكان معـه حـق:

لماذا الآن؟

كنـتُ أقنـع نفسـي حينهـا بـأن الحمـل وتـرك المدرسـة يبقـى أفضـل مـن أن يتـزوج إليـاس، فلـو تـزوج إليـاس لمـا سـلمت مـن النـاس وكلامهـم، كنـت سـأبدو مثـل الشـجرة غـير المثمـرة!

مـرّت ثمانيـة شـهور، وفي الشـهر التاسـع كنـت أتـألم كثـيراً. اضطـرت أمـي أن تظـل طـوال الوقـت بِجانبـي، حتـى جـاء يـوم الـولادة، لم أذق في عمـري ألمـاً كذلـك الألم، فبعـد ألم المخـاض الـذي لم يـؤد إلى ولادة طبيعيـة، تمّـت ولادتي بعمليـة قيصريـة، ولكننـي عندمـا رأيـتُ طفلتـي نسـيت كل الألم، لقـد كانـت طفلـة تشـبهني كثـيراً، كانـت عيناهـا تبرقـان، ولهـا شـعر أسـود مثـل شـعر إليـاس، قالـت أمـي:

إنها بريق الثانية.

قال زوجي إلياس:

سوف نسميها نور، نور الأولى.

وهكذا أصبح البريق يحمل النور، وينحدران

في الحياة، أحدهما يحمل الآخر، لكن إلى أين؟

تزوجتَ ولم أُنسَ

قصة للطالبة

سماح عبد الرحمن الخطيب

مدرسة الساوية الثانوية للبنات / نابلس

حصلت أحداث القصة في إحدى قرى مدينة نابلس بين عامي ٢٠١٧-٢٠١٩م

تنسين!

قالوا لي ستدخلين عشّ الزوجيّة، وتنسين! عندما دفنت أحلامي، وتوجهت إلى هلوسات سندريلا. عندما كُتب كتابي على ابن عمي، قبل أن أبلغ. عندما أُجبرت على اللّبس الشرعي لأني صرت ناضجة بعين المجتمع.

عندما مُنعت من أكل البوظة في الشارع، لأن حركات شفتيّ تثير الرّجال وتغريهم. عندما حرمني من ركوب الألعاب، حفاظاً على صورتي العفيفة.

عندما وأدت طفلي الذي لم يرَ من رحمي النور. عندما تركني وأخيراً؛ لأني فشلت في بناء عائلة. عندما تجرّدت روحي منّي، فأصبحتُ من المنازعات على حقّهم المنطوي تحت كدمات المجتمع.

المُشكِلة أنني دخلتُ الزواج، وخرجت منه جريحة، لكني لم أنسَ.

تزوجتُ، ولم أنسَ!

ابتعد لأجلس إلى جانب أمي، ابتعد، ابتعد.

إنني صغير العائلة، أنتِ اذهبي بعيداً.

أف، إنّكم ظالمون، وأنا أيضاً صغيرة.

أنتِ تبلغين الرابعة عشرة، يكفي عناداً، أنا من سيجلس هنا.

ما بيننا ثلاث سنوات وليست مئة، أميّ، هل ما أقوله صحيحاً؟

أيعقل أنكما تتجادلان على أمرٍ كهذا، هيا يا غيم تعالي إلى يميني، وأنت يا أحمد إلى اليسار، هيا بسرعة.

***

طُرِق الباب، طرقة، طرقتين، طرقتين تتسارعان، ثم ثلاث طرقات.

غيم، افتحي الباب بسرعة، غيم...

أفّ، سأقوم يا أمي.

توجهتُ راكضةً إلى الباب الحديدي، بتسارع دقات قلبي الذي بدأ يُسرع غضباً، لأن الطارق على الباب نزع منّي حضن أمّي، أمسكت بقبضة الباب، وفتحته.

لقد كان عمي من يطرق الباب، اشتقت له كثيراً، فما إن رأيته حتى صحت بصوت عال قائلة:

عمّي، لقد اشتقت إليك.

ضمني إلى صدرهِ قائلاً:

وأنا أيضاً اشتقت لكِ، أتعلمين؟ إنني هنا من أجل شيء سيجعلك سعيدة.

هل أنت محق يا عمّي؟ قل لي ماذا هناك؟

هل سنتكلم على الباب؟ لندخل أولاً يا عديمة الصبر!

أومأتُ برأسي، وقلت:

طيب يا عمي، أهلاً وسهلاً.

ركضتُ مسرعةً، وعدتُ إليه بكأس ماء في قلب غرفة الضيوف، وقلت:

عمّي، الماء، تفضل.

ابتسم، ثم أخذ كأس الماء منّي بلطف، قرّبه من فمهِ، وشرب، أعطاني الكأس وكأنّهُ يحضّر نفسه للبشرى. وضعت الكأس على الصينية التي تقابلني على الطاولة، جلستُ، وهيأ هو جلسته، وضع رجلهُ اليمنى على اليسرى، ثم وجّه بصرهُ إليّ، وقد بدأ الأدرينالين يتصاعدُ في عروقي، متحمسةً لما سيقولهُ، يا ترى هل سيأخذني معه إلى مدينة الملاهي التي أحبها في بيتونيا، أم سيأخذني معه لأشتري كراسات رسم جديدة؟ انقطع تفكيري مرة واحدة حينما قال:

ابنتي غيم، كما تعلمين الحياة دين، ونصف هذا الدين زواج، وأنا سأقول لكِ ما في قلبي بلا مقدمات، لأني لا أحبها، ابني حمد يريدُكِ زوجة لهُ على سنة الله ورسولهِ، ونحن عائلة واحدة، ولن نجدَ أفضل منك أدباً، وأخلاقاً يا عمّي.

قاطعته قائلة:

أنا!

أعلم أنك فوجئتِ، لكنّي أعلمُ أيضاً أنك لن ترفضي لي طلباً.

لكن لماذا هو يفاتحني بالموضوع دون وجود عائلتي؟ قلت باستغراب:

وأهلي؟!

أهلك يعلمون بالموضوع يا حبيبة عمّك، وفضّلت أنا بنفسي أن أبشّرك بالخبر، وحسب الأصول والتقاليد سوف نعطيكم وقتاً كافياً، لتتشاوروا فيما بينكم بالموضوع، هكذا اتفقت مع والدكِ، وأنا متأكد أنك لن تخيبي أملي بِكِ .

تتسارع دقات قلبي عجباً مما سمعتهُ، تتسمر قدماي كقطعتي ثلج ثابتتين أرضاً لا تتحركان، الخوف يقطب جبيني، دمعةٌ تترنم أسفل عيني، وكأنها تقول لأحلامي: اسقطي بعدها، هذهِ الدمعة التي يقال عنها «دمعة الخجل»، إنها لم تكن سوى رجفة الخوف من الآتي.

ماذا عساي أن أفعل؟ كيف لي أن أتقبل خيبة عمي بسببي؟ عمّي الذي جاء متفائلاً بقبولي لابنه؟ هل أحتمل يا الله حزنه؟! هل سأكون معولاً لنبذ عائلتي؟ ماذا فعلت يا غيم، لتُصدَمي بهذا الخبر في هذا الوقت؟!

تفاجأت بنظرات أبي تأكلني، ذلك السوّاد الذي يُدوّر عينيه، وكأنّه يحدثني عن خجله من الرفض، شفتاه اللتان يزمهما الخوف خشية من رفضي، ملمس جلد وجهه الذي يعبّر عن شقائه طوال السنين مع أخيه، انسدال رموش عينيه المطفية، هل تنطفئ علاقته بأخيه برفضي!؟

هربت إلى غرفتي، قفزت إلى سريري، تكومتُ ككومةِ قشٍ صغيرة:

ما الذي سيحدث يا غيم؟ وماذا عليّ أن أفعل؟

حمد ابن عمي الذي يكبرني بخمس عشرة سنة، لم تسنح لي الفرصة ولم يسنح لي العمر، بأن أدري ما هو فعلياً، ألتقيه في الزيارات النادرة التي قد تزورها عائلتنا لبيت عمي، ويكفيني أن أعلم بأنه على أبواب الثلاثين من عمره!

ولكـن عـلى الرغـم مـن هـذا، إلا أننـي وجـدت نفـسي أحلـم بالفسـاتين، ومسـاحيق التجميـل، والرحـلات، والحريـة، والنزهـات المحرومـة منهـا في البيـت، والهـروب مـن أجـواء الغضـب التـي يسـودها جـو والـديّ، أفكّـر في الهاتـف الحديـث الـذي سيشـتريه لي عنـد الخطوبـة، والبرامـج التـي أسـتطيع تنزيلهـا عليـه، بـدأت أتمـل بهلوسـاتي تلـك، وقـد بـدأ حلمـي الأول يختفـي، بـدأت أنـسى الرسـم، وحلمـي بـأن أكـون صاحبـة معـارض فنيـة، تزّيـن لوحـاتي البلـدان الأجنبيـة والعربيـة، بـدأت في ذلـك الوقـت أحفـر لكارثـة ضـدّ أحلامـي، تلـك الزيـارة بالفعـل صوّبـت رصاصـة القتـل عـلى رأس أمنيـاتي.

***

دقّت ساعة النحس!

لقـد مـرّت ثلاثـة أسـابيع عـلى زيـارة عمـي لي، وخـلال هـذا الوقـت لم يضغـط والـداي عليّ بشـأن الـزواج، مـا وفّـر جـوّاً ملائمـاً لتنهـال الاتصـالات العائليـة علينـا مـن أعمامـي وعـماتي مشـجعة عـلى الموافقـة، حتـى إنّ والـديّ أصبحـا يتأثـران بـالآراء، والتشـجيع الـذي انهـال عليهـما كزخـات المطـر.

غيـم، تعـالي يـا أمـي، غيـم، غيـم، تعـالي...

حضرتُ عندهما، وحضرت جملٌ علقت بذاكرتي حتى اللحظة:

«ستتزوجين قريبا لك»، «عمك سيكون كأبيكِ»، «أعمامك سيكونون إلى جانبك»، «ستكونين بأمان»، «ستحظين بالحب يا غيم»...

أصبح حديثهم يا الله متمماً لما قاله عمي، وازداد الوضع سوءاً حين علمنا من أحد الاتصالات بأنّ زوجة عمّي تبكي دموعاً؛ لأن الموضوع أصبح، عندما تأخرت بالرد، وكأنه ميؤوس منه، هنا أحسست بالذنب لأول مرة.

-ماذا سيجري لعائلتي التي تفعل كل ما بوسعها لتوطيد العلاقات؟ هل سأكسر كل ما بنوه في السنوات الماضية فقط بقرار مني؟

لذلك حوّلت نظري نحوهم، وأجبتهم بموافقتي على طلبهم، حاولت أن أكون على راحتي، طبيعية بقدر ما أستطيع أمامهم فقط، كي لا يخشوا على حالتي، لكنّهما، أبي وأمي، في ذلك الوقت كانا متأرجحين حتى بعد إسهابهما في إقناعي بقبول العرض، كأنهما بالفعل لا يدركان ماذا يفعلان، وإلى أين تأخذهما رياح هذا المشروع، وبعد نظرات متبادلة جرت بينهما، ومحادثات أجرياها بتبادل النظرات، لم أفهمها حينها، ختم أبي الحديث قائلاً:

الله يوفقك، ويرضى عنك..

أذكر اليوم الذي تلا الشهر السابع من خطوبتي، حين أسندت رأسي إلى الحائط المقابل لسريري ليلاً، وتركت الهاتف يرن بمكالماته التي انهالت عليّ واحدة تتلو الأخرى، وبدأت أبكي نفسي.

ماذا تحاولين أن تفعلي يا غيم؟ إلى أين ستصلين؟ إذا كنت لا تريدينني قولي لي، أفصحي لي عمّا يدور في جعبتك، أنا أحتاج إلى أن أكون سعيداً، قولي لي ما يدور في رأسك، لكن لا تفعلي ذلك.

حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أبتلع تلك الجمل منه، لكنني لم أتوفق حتماً، بقيت حروفه عالقة في جوفي، وصوته يطرق رأسي، بقيت أحاول أن أفسر لنفسي ماذا أفعل لكني كنت أفشل، كثيراً ما حاولت أن أكون كما يريدون، كما يشتهون، وأخفقت، كنت دوماً أصطدم بجدار طفولتي المتين، ومع ذلك كنت أشفق عليه، هو أيضاً بحاجة إلى السعادة، إلى من تستطيع أن تفهمه، وأنا لست مؤهلة!

غالباً ما كنت مضطرة لأن أعطيه وعوداً كاذبة، غير قادرة على الوفاء بها، «سوف أسعدك»، «سأحاول كما تريد»، لكن كل الطرق كانت تنتهي بالفشل.

رويداً رويداً أصبح الحاجز، الذي انبنى وحده بيننا، يكبر، ويتحول إلى رغبة حادة بالفرار من كل هذه الفوضى في المشاعر، أصبحت أشعر أنني بحاجة كبيرة لأن أكون وحيدة، رغم أنّه حاول كثيراً التّقرب منّي،

لكن دون فائدة، كانت محاولات محروقة لا تجدي نفعاً يا حمد، حاجتي للعزلة كانت تتفاقم لديّ، كانت أكبر من قربي منك!

وضِعتُ أكثر في الوقت الذي أجبروني خلاله أن ألبس العباءة والمنديل، كوني أصبحت فتاة على ذمّة رجل، وفي واقع الأمر فتاة لم تبلغ بعد، في ذلك الوقت الذي حلمت فيه أن أدخل مسابقات التنس، ومنعت لأني على باب زيجة، وهذا ليس من تاريخ الفتيات المحافظات، في ذلك الحين خافوا عليّ من كلام الناس، خافوا بأن يقال عني فتاة تلاعب الشباب في النوادي الرياضية، والمسابقات، وهي على ذمّة رجل.

خافوا علي من العار، ولم يخافوا على زجاجة روحي من الكسر!

في تلك الأثناء كانوا قد بدأوا بالتحاور حول موعد الزّفاف، ذلك بعد أن بشّرتهم أمي بأنني قد بلغت؛ فالزائر الأحمر أخيراً استقر لدي وغدوت عندهم فتاة بحلّة جديدة جديّة، وأصبحت مؤهلة لبناء عائلة، وقد تحدد يوم الزفاف بكلمتهم بعد شهرين من هذا الوقت، حيث إنهم لم يعيروا أهمية للصعوبات التي تتفاقم بيننا، وحاول هو أن يتجاوز برودي معه، ظنّاً منه أن الأمور كلها ستصلح بعد الزواج.

همست حينها أمي بأذني قائلة: ستتزوجين وتنسين!

هل سأنسى حضنك يا أمي؟ أم سأنسى لعبة الأفعى، وحجر النرد؟ ماذا سأجد هناك لأنسى؟ فأنا الهزيلة التي لا تدري ماذا سيحصل لها في ذلك البيت؟!

في البداية، لم أكن زوجة لِحمد، بقدر ما كنت زوجة للشقة التي تسكنني لا أسكنها، للأثاث الذي حفظ أقاويلي، للمطبخ الذي لم أنجح فيه قطعاً، للمأكولات المالحة، والنيّئة، للنافذة التي تطل على الناس الأحرار، كنت زوجة السرير، والغرفة، وأقلام الشفاه، وطلاء الوجه، وأخيراً تسنح له الفرصة لأكون زوجته بعد صعوبة بالغة.

تـزورني الأفـكار في كل ليلـة ثـم أغطـس في النـوم، لكـن في تلـك الليلـة التـي غـرق هـو فيهـا بنومـه إلى جانبـي، غرقـت أنـا في الليلـة التـي قضيناهـا في مدينـة الملاهـي، بعـد أن رجوتـه شـهوراً عـدّة كي أذهـب إلى هنـاك، لأني اشـتقت للعـب.

لقد جئنا إلى مدينة الملاهي يا غيم، لقد تحقق ما تريدين، رأيتِ الألعاب؟

هل يمكنني ركوب واحدة منها؟

أتمزحين معي؟

لكن..!

قاطعني قائلاً:

كفى، هل تأكلين شيئاً؟

فأجبتهُ ببراءة:

نعـم أحـد ألـوان البوظـة، كـم سـيكون مذاقهـا جميـلاً.

نظـر إليّ وكأننـي طلبـتُ شـيئاً سيفسـدُني، وقـال غاضبـاً:

سآتي بكأس عصير، عليكِ اللعنة!

كان بـوّدي وقتهـا أن أصرخ في وجهـه قائلـةً:
أي قانـون يحرمنـي مـن اللعـب يـا حمـد؟
هـل حركـة شـفتيّ عنـد أكل البوظـة هـي مـا يجعلنـي فتـاة غـير محترمـة!

شردت في اللحظة التي كَتب لي القدر من خلالها أن أصادف إحدى طالبات مدرستي، شردت في شرائط شعرها، وزيها المدرسي، الحقيبة التي تعلو ظهرها، تخيلت نظراتها تهاجمني، تسحقني، تخيفني، تذلني، تهزني من الداخل، تطرح عليّ الأسئلة، أين أنت يا غيم؟ أين طفولتك؟ أين مدرستك؟ أين حقيبتك؟ أين كتاب الأدب المفضل لديك؟ أين نظراتك المليئة بالأحلام؟ أين الفن؟ أين الرسم؟ أين الألوان؟ أين أنتِ يا غيم؟

أمسكت بالقلم في ظهيرة اليوم التالي، وجئت بورقة مختبئة بين مقتنيات الدرج المقابل، وبدأت أرسم، وأرسم، وأرسم، كنت قد أمضيت وقتاً طويلاً دون أن أمارس الرسم، فبدأت أرى أحلامي على الورق تنتظرني، رسمت مدرسة، رسمت طالبة، رسمت معلمتي جواهر وأنا أحتضنُها، وفي يدها شهادة، رسمت معرضاً، رسمت فنانة بجوار لوحات وزوّاراً كثيرين يحيطون بها، عصفوراً حراً لا يقيده أحد، وتمنيت حينها لو أنني طير، رسمت قبراً، دفنت نفسي فيه، وطمرت وجهي بالتراب، رسمت زجاجاً كسرّت به عظامي، حطّمت به جبهتي، رسمت سرداباً هربت من خلاله لحضن أمي، هربتُ لعروسة اللّبنة، شردتُ لكأس الحليب من يديها المباركتين، وأخيراً

رسـمتُ غيـم تنـام في سريرهـا!

***

لقد سئمت البيت شيئاً فشيئاً، سئمتُ المطبخ، والسرير الذي يجمعنا، حبل الغسيل الذي أنشر عليه ملابسنا، ومائدة الطعام التي نجتمع إليها متقابلين صامتين، وتفاقم الشعور بالغربة التي تحوطني في ذلك المنزل، ليست غربة الأهل، ولا العائلة، إنما شعور غربة الأحلام عني.

أخيراً، بدأت هواجس الهرب تطرق بابي، وتعصر رذاذ أفكاري، تأخذني إلى مكان بعيد عن هذه المساحة الضيقة، كيف أهرب؟ وإلى أين؟ إلى من ألتجئ يا الله؟ هل أهرب إليك؟ هل تنقذ روح غيم؟ هل تقبل توبتها؟

ثم فجأة أصبحت فكرة الهرب مستحيلة، حيث لا يوجد طريق منطقي أعثر عليه، الطلاق مستحيل، لأن العلاقات ستتفكك من أجل طفلة، وإن حدث الطلاق سأنهي احتمالية تعليمي نهائياً، لن يبعثوني إلى المدرسة مرّة أخرى حتى بعد الخلاص، سيعاقبونني بالحبس البيتي، وبهذا تكون محاولاتي للهرب غير مجدية.

وما إن طرق الباب حتى خرجت من هلوساتي الفكرية، وتوجهت إلى الباب أفتح له بسرعة، كي لا يشّك في شيء.

فتحت له الباب، خلع نعليه، مال عليّ مستغرباً من حالتي:

ما بكِ، هل جاء أحد إليك في غيابي؟

يا رحيم، ماذا لو عرف بسلسلة أفكاري التي تخلد في رأسي؟

ثم أجبته متلعثمة:

لا أبداً لم يأتِ أحد، ليس هناك شيء يدعوك للقلق.

ثم صاح مستهزئاً:

ضعي لي عشاء مما صنعته يداك المباركتان اليوم يا غيم.

كنت في ذلك النهار مستلقية فوق دفتر الرسم، متكئةً على أحلامي، لم أتذكر الأكل بتاتاً.

ثم أردفت قائلة:

لم أفعل شيئاً يا حمد.

فأجاب مستنكراً، وكأنني فعلت عاراً:

لماذا؟ لم أفهم؟

لم أجبه، وسمحت لأفكاري بأن تشرد في رحلتي الزوجية التي أمضيتها منذ خطوبتي إلى هذا الوقت، فتوالت في رأسي عبارات الذمّ، والتوبيخ، والمهازل اليومية، كانت فشلاً ذريعاً أحاسب عليه في كل لحظة أمضيتها معه، حتى إنّه أصبح يذّم نفسه على هذا الاختيار الخائب.

صرختُ قائلةً:

لِمَ لا تقول إنّك وأدتَ طفلة؟!

سقطت هذه الكلمات دفعة واحدة على رأسه، انكمشت في رأسهِ وتفجرّت، حدّق بي، ازدادت حدّة غضبه وبلغت ذروتها، حين تمرّد على الموقف وصفعني على وجهي، حين شجّ حاجبي إثر وقوعي على إحدى زوايا

المقعـد المقابـل، لكنـي لم أضعـف، لم أركـع، ولم أسـجد، لم أتوسـل، تصاعـد في المـكان صـوت عريـض مخنـوق، ابتلـع الظـلام ضعفـي، شـعرت بفتيلـة تثـور في نفـسي، صحـت في وجهـه بـكلام لا أتذكـر منـه شـيئاً، حاربتـهُ بـكل مـا أملـك مـن ضعـف، ولا أدري مـا الـذي كنـت أبكيـه غـير طفولتـي، فـكل مـا كنـت أذكـره أنّـه كان يـزداد غضباً كلـما تفوهـت، فيضربنـي أكـثر عـلى رأسي، يرفـع كلتـا يديـه فـوق جسـدي الضئيـل، وبـين كفيّـه يتصلـبُ صوتـه الغاضـب، ثـم يهـوى عـلى الأرض، يصمـت الصمـتُ فينـا، ثـم يصمـت كلّ شيء.

في الليّـالي التـي قضيتهـا في ذلـك الـسرداب كلهـا، كنـت أنـام ذليلـة الفشـل الـذي حـدده ذلـك الـزواج، أنـام ذليلـة أحلامـي المحبوسـة، إلا في هـذا اليـوم نمـت ذليلـة يديـه التـي أبرحتنـي ضربـاً.

صحـوت باكـراً في اليـوم التـالي، أتحسـس أيـن أنـا، لقـد كانـت ملحمـة قاسـية، تراجـع الضعـف فيّ وصمـت، كانـت ليلـة مليئـة بالقـوة يـا غيـم!

شـعرت وقتـذاك أننـي منفيـة، حيـث لا عائلـة، ولا أهـل، ولا أحبـاب، أحسسـت بـأنّي عجينـة يقلبونهـا، ويشـكلونها، ويخبزونهـا متـى أرادوا، ولا فـرار مـن هـذا القفـص الذّهبـي، قفـص عفـاف المـرأة، إلا بالفـرار مـن هـذهِ

الحيـاة، فبـدأت أبحـث عـن أداة أقتـل بهـا جسـدي الـذي نجـا، فقـد قتلـت أحـلام غيـم، وطفولـة غيـم، لقـد مِـتُّ، وظـلّ قـبري خاليـاً يـا أمـي، لم أجـد أحـداً أقـول لـهُ إني تعبـت.

وقع نظري تلك اللحظة على زجاجة ملقاة على الأرض، ملت نحوها وجئت بها محاولة تقطيع أوردتي.

***

وجـدتُ نفـسي بعدهـا في المشـفى، المشـدّات تطـوّق جبهتـي، ويـديّ، الوجـعُ يتسـلل إلى أعماقـي، مشـاهد الزجاجـة في يـديّ، ومحاولـة جـرح نفـسي، لكـن مـاذا حـدث بعـد ذلـك؟

طـرق البـاب عـليّ، فتفاقـم داخـلي شـعور مـليء بخـوف كبـير، دخلـت أمـي، ضمتنـي إليهـا بحضـن فاقـد، بعينـين ذابلتـين، وجفنـين شـائخين تحرسـانني بحـرص شـديد، وكأنهـا في هـذا اللقـاء كانـت تريـد أن تعيـدني إلى وطنـي، إنهـا تعتـذر منـي نيابـة عـن الفقـد، نيابـة عـن الأذى، عـن الخـوف، عـن مصـادرة الأحـلام.

خـلال ذلـك كانـت زوجـة عمـي ترمقنـي بنظـرة غريبـة، بعينـين واسـعتين يشـعّ منهـما كثـير مـن الاشـمئزاز، نظـرات بـاردة لم أفهـم مفادهـا، شـعرت مـن خلالهـا بالكراهيـة تجاهـي..

وبعد مدة من الوقت، قالت:

لقـد فقـدت ابنـك الـذي لم يـرَ مـن أحشـائك النـور، لـن أطيـل عليـكِ، إن وضـع حمـد حـرج للغايـة، لم يحتمـل مـوت ابنـه عـلى يـد زوجتـه، لذلـك لـن يسـتطيع أن يكمـل حياتـه الآتيـة مـع طفلـة لا تسـتطيع أن تحتمـل مـن الحيـاة الزوجيـة شـيئاً، انتظـروا موعـد محكمـة الطـلاق.

***

انصرفت خارج الغرفة تبكي حفيدها، حينها لا أدري ما الذي أصابني، أي شعور هاجمني، كان يجدر بي أن أتقيأ غيم منّي، أن ألقي بذاتي في الجحيم، شعرت بجلدي يخلعني، بأعضائي تغادر جسدي، بروحي تهجرني، شعرت بالسماء تطبق عليّ، يا الله لقد قتلت ابني!

حشوت رأسي حينها في حضن أمي، علقت يديّ بأحلامي ورسماتي، بحريتي التي ارتبطت بذنب كبير قد لا يغفره الله لي، كان الحائط أبيض كنوايا غيم، كان طلاء الحائط متقشرا كندوبي الباقية، كان الجدار عارياً كجسد غيم، كانت الغرفة باردة كعيني غيم فيما بعد، لقد كانت الراحة حينها بعيدة، والنوم مستحيلاً يا أمي!

لقد بدأت معركتي مع الحياة، يجب أن أصمد.

يتحتمُ عليّكِ يا غيم أن تقفي أمام مجتمعك، مجتمعك الذي لا يتم إلا بكِ، هذه المجتمعات التي تتقبل الضرب بحق الإناث، تتقبل العنف، تتقبل زواج القاصرات، ولا تتقبل صيحتهم!

إنني هنا يا أمي إن فُقدت، إنني في نصّ محمود درويش حينما قال:

«فصرختُ: هذا الموت لا معنى لهُ.

عبثٌ وفوضى في الحواس،

ولن أصدّق أنني قد متُّ موتاً كاملاً

فلربما أنا بين بين

وربما أنا ميتٌ متقاعدٌ

يقضي إجازته القصيرة في الحياة!

جميلة

قصة للطالبة

عهد نبيل خلف

مدرسة الخوارزمي الثانوية للبنات / الخليل

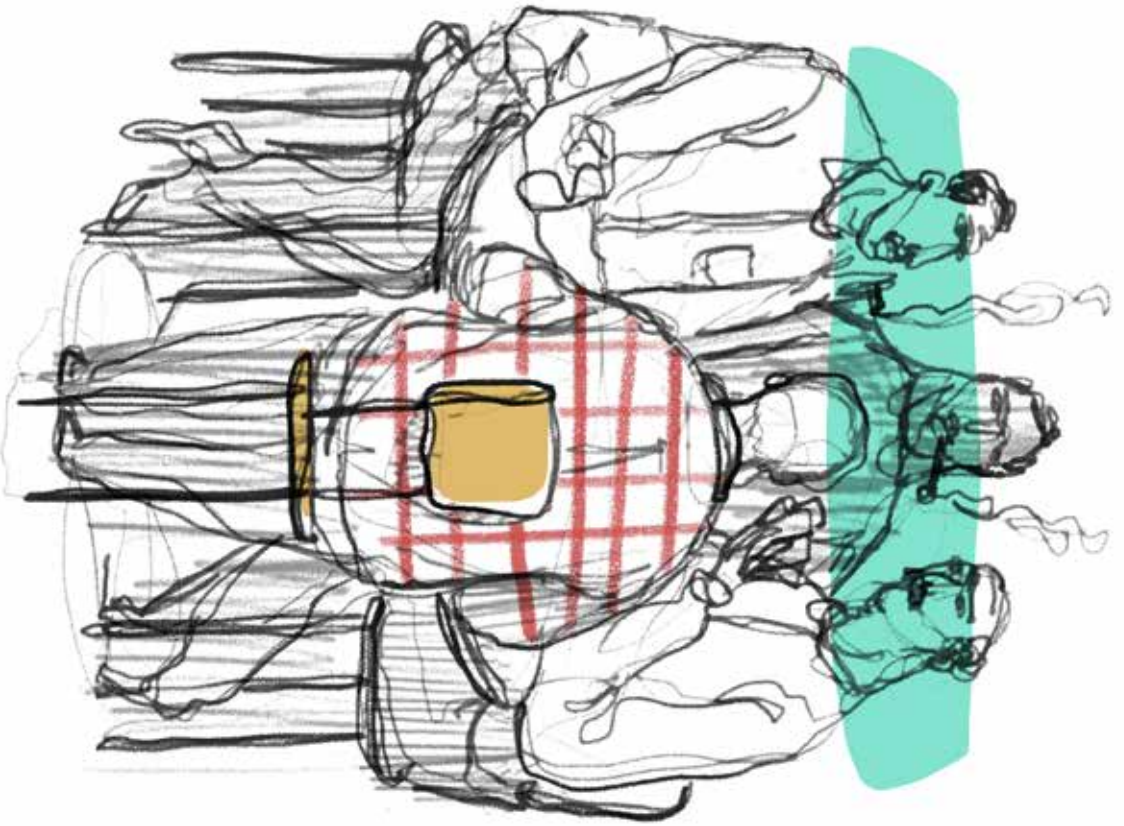

إهداء

لكل طفلة ستشتري ثوب زفافها، إياكِ والمخاطرة، فربما لن يكون سوى كفن.

لكل طفلة قد اشترته فِعلاً، لا تفقدي الأمل، فكل يوم تحدث معجزة.

لكل طفلة ما زالت تمتلك زِيّاً مدرسيّا، بينما تقرأ هذه الكلمات، انظري حولكِ جيّداً، وكوني صاحبة مبدأ.

عثمان، العب، أم أنّك خائف؟!

مَن؟ أنا؟! هه بالطبع لست كذلك، لكن لم يتبقّ معي مال لأراهن به.

ليس شرطاً أن يكون مال، هناك أشياء كثيرة تستطيع الرهان بها.

أشياء مثل ماذا؟!

يمكننا التعديل على قوانين اللعبة قليلاً، مثلاً عندما أربح أنا تعطيني ما أطلبه منك ودون أي اعتراض.

هه.. ما هذه الثّقة العمياء؟! حسناً يا باسم، وإن فزت أنا فستعطيني ما سأطلبه منك أيضاً، اتفقنا؟

اتفقنا.

وبدءا اللّعب.

***

طاولة «قمار»، يجلس حولها عدّة أشخاص، يلعبون، ثم بعد حين ينصرفون كلّ إلى بيته وعائلته.

كانت تلك الطاولة كفيلةً بأن تُغيِّر مزاج أي شخص يجلس حولها؛ فمنهم مَن يغادرها سعيداً، لأنه حقق الفوز، ومنهم من يغادر وعروق رأسه بارزة من الغضب، وذلك لأنه خسر ماله كله.

لكن، هذه المرة، الموضوع مختلف تماماً، وبسبب بعض التعديلات «البسيطة» هُناك مَن سيخسر ما قيمته أكبر من المال...

***

جميلة، جميلة.. دعي أختك وشأنها.

لكن يا أمي، هي مَن بدأت العِراك.

قلتُ لكِ دعيها، أأنتِ الطفلة أم هي؟!

نحن الاثنتان.

يا إلهي..إلى متى ستظلّين تتصرفين كالأطفال يا جميلة! لقد أتممتِ الأربعة عشر عاماً، أصبحتِ فتاة كبيرة، تتحملين مسؤولية أفعالكِ وكلامكِ، أنتِ لم تعودي طفلة، هل فهمتِ؟!

والآن، لا تعبثي معها، وتعالي ساعديني في المطبخ.

***

في الخامسة عشرة مِن عمرها، صبيّة، أو الأصحّ: طفلة.

جميلة، وكما يقول المثل: اسم على مسمّى.

في ذكرى يوم ميلادها، وفي تمام الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، كانت جميلة قد استعدّت لتطفئ شمعة عيد ميلادها الخامس عشرة، كانت أمها قد حضَّرت لها كعكة شهيّة

بطعـم لا يقـاوَم.

تقـول أمهـا دائمـاً إنـه لا حاجـة لـشراء كعكـة مـن محـل صنـع الحلويـات؛ فهـي باهظـة الثمـن، والأهـم مِـن هـذا أنهـا غـير صحيّـة. فمِـن وجهـة نظـر الأم أن كلّ طعـام يُصنَـع في المحـلّات والمطاعـم يكـون غـير صحّـي، وأن الاطعمـة التـي تصنعهـا يدويـاً في مطبخهـا المتواضـع تكـون ألـذ وأجمـل وأقـل تكلفـة، ولكـن لا بـأس بهـذا ، فأمهـا «مريـم» كانـت حقـاً ماهـرة في الطبـخ وصنـع الحلويـات، عـلى عكـس جميلـة تمامـاً، التـي كلـما حاولـت صنـع كعكـة بسـيطة، تحقـق فشـلاً ذريعـاً.

ومثل كل عام، وقفَت جميلة أمام كعكتها، أغمضت عينيها، وبدأت بالتمنّي.

تمنّـت أن تنعَـم بحيـاة سـعيدة هادئـة، تمنـت أن تحصـل عـلى علامـات جيـدة في دروسـها، تمنـت أن تشـتري هاتفـاً، حيـث إن صديقتهـا ابتاعـت لنفسـها مؤخـراً هاتفـاً مِـن أحـدث إصـدار، وطبعـا بـدأت بالتفاخـر والتباهـي. تمنـت جميلـة أن تشـتري هـي أيضـاً واحـداً لهـا، لكـن مِـن أيـن لهـا بالنقـود وهـي بالـكاد تحصـل عـلى مصروفهـا للمدرسـة؟

لقد تمنّت أن يكون عامها الجديد مليئاً بالسرور والبهجة، لكن...

***

هاا يا عثمان، أَلَم أقل إنك ستخسر؟

حسناً حسناً، هذا يكفي، أخبرني بمَ تريد ودعني أنصرف.

جميلة.

ما هي؟!

لا لا، أقصد أريد ابنتك جميلة، أن أتزوجها.

حلال عليك.. خُذها.

حوار سخيف، قصير، لم يتعدَّ الدقيقتين.

كان سـبباً كافيـاً ليـودي بحياتهـا في الهاويـة، وينـثر أحلامهـا الورديـة، لتطـير مـع الريـاح؛ علّهـا تجـد شـخصاً آخـر يحققهـا..

تحت تأثير الكحول، كان أبوها قد وافق على منحها لشخص يطلِق عليه لقب صديقه.

لقد وافق على تقديمها على صحنٍ مِن فضّة لشخص يكبرها بأعوام كثيرة، وكل ذلك مِن غير علمها.

لم تكن جميلة تستغرب أيّ شيء يفعله والدها؛ فرجل مدمن على الكحول يُتوقَّع منه أي تصرُّف.

لكن شخصاً كهذا هل يصلُح كي يكون أباً؟!

لو خُيِّرَت، فستعيش حياتها كاملة يتيمة الأب على أن يكون لها أب مثل عثمان.

بعد ذلك الحوار اللعين، على طاولة متّسخة، وأشخاص لا يختلفون عنها كثيراً، بدأت حياة جميلة تأخذ منحنى أكثر تعقيداً..

***

دقَّت الساعة الثانية والنصف بعد الظُّهر، كانت قد عادت من المدرسة للتو، وهي الآن في المطبخ تُعِدّ الشاي لضيفٍ ستراه للمرة الأولى.

ترتدي بيجامة تكتظّ برسومات كرتونية بألوانٍ زاهية وأشكال رائعة، وأما شعرها فبتسريحة ذيل حصان تنسدل مِن جانبيّ رأسها. تشعر بالإرهاق بعد يوم مزدحم بالنشاطات المدرسية. تسلّلَت إلى أنفها رائحة شهيّة تنبعث مِن إبريق الشاي الموضوع على الطاولة، إنّ النعنع في الكؤوس، وأصبح الشاي جاهزاً.

أمسكَت الصينية المليئة بكؤوس

الشاي، واتجهَت نحو غرفة الضيوف، كان الباب مغلقا جزئياً، اقتربت منه ببطء، لم تكن لها أيّة نيّة للتنصّت على الحديث، هي فقط هادئة بطبعها، ويجب أن تكون ممتنّة جداً لهذه الصّفة في شخصيتها..

سمِعَت همساً بين أفراد العائلة والضيف، ترى ما الذي يدور في الداخل؟!

لِمَ الهمس؟

لمَ لا يتكلّمون بوضوح؟!

أسئلة كثيرة أصبحت تدور داخل رأسها الصغير.

لحسن حظّها، أو سوئه، نفذت بضع همسات مِن طرفِ الباب وحطَّت بداخل أذنيها.

أصبحَت تميّز الكلمات، تحللها؛ لتستنتج ما هو الموضوع المهم الذي يستدعي الهمس للتكلّم به.

بعد دقيقتين تقريباً مِن الجُمود خلف الباب، سمِع مَن في الداخل صوت حُطام قويّ؛ نعم، إنها الصينية في يدها؛ لم تستطع منع أصابعها الصغيرة مِن الارتعاش، وأطراف الصينية الناعمة لم تساعد أيضاً، فوقعت وتحطَّمت جميع الكؤوس من فوقها.

هبَّت أمها مِن مكانها؛ لتنظر ما الذي حصل، وتبعها والدها. فتحا باب الغرفة وشاهدا المنظر، لقد كانت جالسة على الأرض تُلملِم قِطَع الزجاج المبعثَرة، والدموع تهطل مِن عينيها بلا توقُّف.

ألقَت نظرة على مَن في الداخل، وإذ به رجل كبير في السن، جالس على الأريكة الموجودة وسط الغرفة. لم تستطع تحديد سنّه تماماً، لكنه

بالتأكيد كان قد تجاوَز الخامسة والثلاثين مِن عمره، فَالخطوط التي بجانب عينيه وفمه أخبرتها بذلك. كان يجلس بكل راحة، ويحدِّق بها بعينين زرقاوين واسعتين. حاولت أن تكذِّب تلك الكلمات التي سمعتها منذ قليل، لكنها بعد تلك النظرات المرعبة قد تأكَّدَت مِن الأمر.

لملمَت دموعها مع الزجاج المبعثر على الأرض، وهمَّت بالذّهاب إلى المطبخ، تجرّ وراءها خيبة أملها بأهلها، وخصوصا أمها، أمها التي لطالما حدَّثتها عن أحلامها ومستقبلها تفعل شيئاً كهذا؟!

وأبوها، صحيح أنّه لا يمتّ للآباء بِصِلَة، لكن الذي فعله الآن فاق كلّ توقعاتها.

شعرَت فجأة بتربيتةٍ خفيفة على كتفها، أيقظَتها مِن أفكارها التي كانت قد تاهت بينها لثوانٍ عدّة.

نظرَت إلى الخلف، فإذا بها أختها الصغيرة «سارة»، كانت تبكي لبكاء أختها، وكأنها فهمت ما الذي حصل قبل قليل، يا لبراءتها! تمنّت أن تكون مِثل سارة؛ طفلة صغيرة، أكبر مخاوفها الذهاب لشرب كأس ماء مِن المطبخ بينما الجميع نيام، وأعظم همومها هو كيفيّة حفظ جدول الضرب. يااااه!

لكن، أليست طفلة!!

هه!! طفلة تستعدّ للزواج؟ يصلح هذا أن يكون عنواناً لفيلم رعب خياليّ!

جاءها صوت أبيها مِن الغرفة:

نحن نعتذر منك سيد باسم، ولكن..

«هاااه يوجد أمل».

لكن سيعود لها عقلها قريباً، وأعدك أنّ موعد الزفاف لن يكون بعيداً.

«هه.. حظاً أوفر يا جميلة».

***

«حفل زفافك بعد أسبوع». أخبرها والدها.

وقع الخبر عليها كالصاعقة. كانت حالتها أشبه بالذي يَسمَع حكم إعدامه لذنبٍ لم يقترفه؛ حتى حكم الإعدام

بالنسبة لها كان أرحم مِن الزواج بِمثلِ هذه السنّ، وبهذه السرعة. صحيح أنها لم تكن تعرف الكثير بخصوص الزواج، لكن، على الأقل، هي تعلم جيّداً أنها ستترك أهلها، صديقاتها، ومدرستها، لتذهب إلى بيت شخص مهما كان قريباً منها، ستظلّ تعده غريباً.

مِثل كثيرات غيرها سابقاً وحالياً، لم يكن لها أي خيار في مثل هذه السنّ، وقد قُدِّرَ لها أن تكون مِن البنات اللواتي تقيّدهن كلمة الأب (الأولى والأخيرة)؛ لذا سارت في الطريق الذي رسمه لها والدها دون حتى أن يستشيرها.

أسبوع مضى، ولا تعرف مصيرها بعده.

***

يجلس باسم في صالون الحِلاقة؛ ينتظر دوره.

يمكننا القول إنه أكثر مكان يَكره زيارته، درجة الحرارة في الخارج كأنها تخطّت الخمسين، غير أن ذلك المكان كان مزدحماً بالزبائن، منهم مَن يريد قصّ شَعره، أو صبغه، ومنهم مَن يريد حَلْق لحيتِه، أو شاربه.

ياه.. كيف يستطيع الرّجل حلق شاربه والتّفريط فيه! أليس الرّجل بشاربه ولحيته؟!

مجرّد التفكير في الأمر يُشعرني بالقرف، حتّى إنني بحلق العقدة بين حاجبيّ أكاد لا أميز نفسي.

نظر مطوَّلاً إلى انعكاس صورته على المرآة، ثمّ قال بعد تنهيدة طويلة محدِّثاً نفسه:

آه يا باسم، ستتزوّج غداً! لكنّك غير راضٍ تماماً. ما الذي حصل الآن! كنت قبل أسبوع تكاد تُحَلِّق مِن شدّة الفرحة، والآن، اختفت البسمة عن ملامح وجهك.

هل هذا حقيقي يا باسم؟ إنك لا تستطيع أن تعرف نفسك بمجرّد تغيير في شكل وجهك؟!

وأنتَ الذي تقول دائماً إن الشخص لا تعرفه إلّا إذا حادثتَ داخله!

رفع رأسه باتّجاه السقف وأراحه على كرسي الحلاقة، وفكّر:

ماذا يقول داخلي يا ترى؟

هل يقبل فكرة زواجي في سنّ التاسعة والثلاثين؟

لا ومِن مَن!! طفلة بعُمر الخامسة عشرة عاماً!

أصبحْت لا أعرف نفسي فعلاً، لا أعرف إذا ما يجب عليّ أن أنصت لقلبي أم لعقلي، أم لضميري!

لكنني حقاً أريد أن أجرب الحياة الزوجية، أستيقظ في الصباح لأجد زوجتي قد حضَّرت لي إفطاراً شهيّاً، نأكل معاً، ثم نشرب القهوة، وأجهّز أنا نفسي للذهاب إلى العمل، وهي تنشغل بتنظيف البيت وتعزيله، ثم، بعد ذلك، تعدّ الغداء وتتجهّز هي لاستقبالي مساءً بوجهٍ برّاقٍ بشوش. نجلس معاً، أحدّثها عن يومي الشّاق، وأتذمّر مِن مديري في العمل، وهي تستمع إليّ بانتباه، ثمّ يجيء الليل و.....

باسم.. باسم.. يا باسم!

استفاق باسم مِن أفكاره وتخيّلاته على صوت الحلاق.

والآن، كيف أساعدك؟

غداً حفل زفافي، وأنتَ أدرى بعملك.

قال ذلك مع ضحكة خبيثة ثبتت على طرفيّ شفتيه.

لكنّ الإنسان لا يغيِّر طبعه، وهذه الأفكار البريئة التي كانت تدور في رأسه قبل قليل لن تجدي نفعاً عندما يستفرد بجميلة وحدها في بيتهم الجديد وغرفة نومهم.

***

وأخيراً وبعد طول انتظار، وجهل بالنتائج..

جميلة الجميلة تلبس فستاناً ناصع البياض، مصحوباً بذيلٍ طويلٍ في آخره، رافعة شعرها عالياً بشكل رائع، تاركة خصلتين حريريتين تنسدلان على رقبتها. لم تكن بحاجة للتبرُّج، لكن بسبب إلحاح والدتها وضعت القليل من مساحيق التجميل. كانت في تلك الليلة أشبه بملاك سقط سهواً من السماء.

***

ورقة بيضاء كالثلج، تملأها كتابات باللون الأسود، حاولت جميلة أن تقرأها، لكنها لم تفهم معظم ما كُتب فيها، تركتها جانباً، واستسلمت للأمر الواقع. ازدردت ريقها، وهي تضع توقيعها على اتّفاقية بيع الطفولة هذه، كالذي يتجرّع السمّ بيده، يعلم أنه سيقتله، لكن ليس أمامه خيار آخر.

لم تكن هي مَن باع الطفولة، بل والدها.

كان زفافها سريعاً وبسيطاً، لكن ليلتها لم تكن كذلك.

***

تزوّجَت وتركت ألعابها؛ لتصبح هي دُمية في بيت رجلٍ غريب.

مرّ أول أسبوع، كان باسم يأمل أن يعيش «الحياة الزوجية» المطبوعة في خياله مع جميلة، لكنه وجد نفسه

يتعامل مع طفلة، لا تكترث لأمره ولا تهتمّ، ليس بقصدها، لكن أمور كهذه لا تخطر ببال طفلة.

أصبحت تتوسّل إليه كلّ يوم ليسمح لها بأن تكمل دراستها، وبدلاً من مجاراتها كان سرعان ما يغضب، ويبدأ بإلقاء الشتائم.

كل هذا كان متوقَّعاً نوعاً ما، إلى أن جاء اليوم الذي دخل فيه البيت وهو في حالة سُكرٍ شديد.

أصبح الضّرب أمراً عاديّاً، جزءاً لا يتجزأ مِن روتين كلّ يوم؛ لقد سوّى كرامة جميلة بالأرض، وداسها تحت قدميه.

شَكَت لأمّها، لكن بلا جدوى؛ فهي لا تملك الصّلاحية لفعل أيّ شيء، فشكَت لأبيها، توسَّلَت إليه، بكت أمامه، لكن قلبه كان والحجر واحداً، لا فرق بينهما.

« إذاً ماذا ستفعل؟ ما الحلّ؟».

كانت تفكّر بالهرب دائماً، لكن خوفها مِن العواقب كان يمنعها، ووضعَت السكّين فوق شرايين يدها مراراً وتكراراً، لكن كلما أرادت قطعها يحدث شيء غريب، وتفلت يدها السكين بسرعة.

تريد أن تتخلص مِن حياتها.. لكن الخوف مسيطر عليها تماماً.

***

في الشهر الثالث مِن زواجهما، ارتاب أهل باسم بشأن عدم حملها، أمّه مِن جهة، وأخواته مِن جهة أخرى، أقنعنه بأن زوجته يجب أن تحمِل وأنها تأخرت كثيراً، فأصبح يشكّ بأنها تتناول شيئاً يمنع حملها. يفتّش بين حاجياتها. يضربها حتّى تعترف.

لكن عبثاً، لم تعترف بشيء، وهل تعترف بذنبٍ لم تقترفه؟ هذا قدر، ولا تستطيع تغييره.

كانت فقط تطلب من الله أن يخلّصها من المستنقع الذي غرقت فيه، وما زالت عالقة في وحله.

***

وذات ليلة...

لماذا لم تعدي لي العشاء بعد؟

الآن سأحضّره.

الآن! مِن المفترَض أنني الآن أتناول طعامي، لكن زوجتي الغبية لا تكترث أبداً، طبعاً، هكذا تكون النتائج عندما تحصل على شيء مجاناً!

ماذا؟! هل تقصدني!

رمقَها بنظرة حادّة، وقال:

نعم، وهل تمانعين؟

طبعاً، وسأتكلّم أمامك، ولن أخشاك، لقد طفح الكيل!

إنْ كنتِ أنتِ ستتكلمين، فأنا سأغيّر الأسلوب.

خلَع حزامه الجلد عن بنطاله.. لفَّه حول يده.. و..

***

استفاقت على صوت أمها تبكي بجانبها، فتحت عينيها ببطء، نظرت حولها، كل شيء كان أبيض.

لحظات قليلة.. ثم دخل الطبيب؛ ليطمئن عليها.

كيف صحتها الآن؟ سمعت أمها تسأل الطبيب.

الأمر لم يكن سهلاً عليها، توجد آثار

ضرب وكدمات في مناطق عديدة على جسدها. إن ابنتك محظوظة جداً؛ لأن الرحم عندها لم يتأذ كثيراً، لكن يؤسفني أن أخبركِ بأن الطفل لم يعد موجوداً؛ فبسبب الضرب المبرح مات الجنين.

كانت كلمات الطبيب تلك كالسكاكين تطعن روحها وجسدها، لم تتحمّل الصدمة، وغابت عن الوعي مرّة أخرى.

طفلها، حرّيتها، وكرامتها، خسرت كلّ شيء دفعة واحدة.

***

يقولون إن المكان الوحيد الذي تستطيع الذهاب إليه عندما تصل على القاع، هو القمَّة؛ ها هي اليوم، تقف على قدميها، وتواجه من كانوا السبب في سلب طفولتها وكرامتها، تواجههم جميعاً، ولا تخشَ أحداً، فهي لم تعد هي بعد اليوم، لقد أصبحت وبعد أربع سنوات فتاة ناضجة، تفكّر بعقلها، وتحسب أفعالها وكلامها بالشِّبر.

***

سيدي القاضي، الآن وبعد أن سمعت القصّة كاملة، أرجو منكَ أن تنصف هذه الفتاة المسلوب حقّها.

بعد مرور أربع سنوات على طلاق موكلتي «جميلة عثمان»، تريد اليوم أن تسترجع حقها الذي سلبها إياه طليقها الجاني «باسم حمدان»، وأتمنّى أن تأخذ بعين الاعتبار أن زواجهم لم يكن قانونيّاً أساساً، وأنها أجبرت على الزواج تحت ضغط والدها، وبحوزتي دلائل تثبِت ذلك.

أيضاً أريد أن تأخذ بعين الاعتبار الأذى النفسي والجسدي الكبير الذي سببه «باسم حمدان» لموكلتي «جميلة عثمان»، كما أنّه تسبب بقتل جنينها أثناء ضربها، وأطلب محاسبته وإلحاق أشدّ العقاب به؛ ليكون عبرة لغيره.

كما أن الجاني «باسم حمدان» يتعاطى المخدّرات، وهذا أيضاً يعاقِب عليه القانون، وكما أخبرتك مِن قبل فإن بحوزتي ما يثبِت كلّ ذلك.

اليوم، سيدي القاضي، مصير هذه الفتاة بين يديك، أنتم أهل للثقة، ونحن نطمع بعدلكم، ونؤمن بتحقيق العدالة ولو بعد سنوات.

ولهذا، نحن هنا اليوم.

تمّت

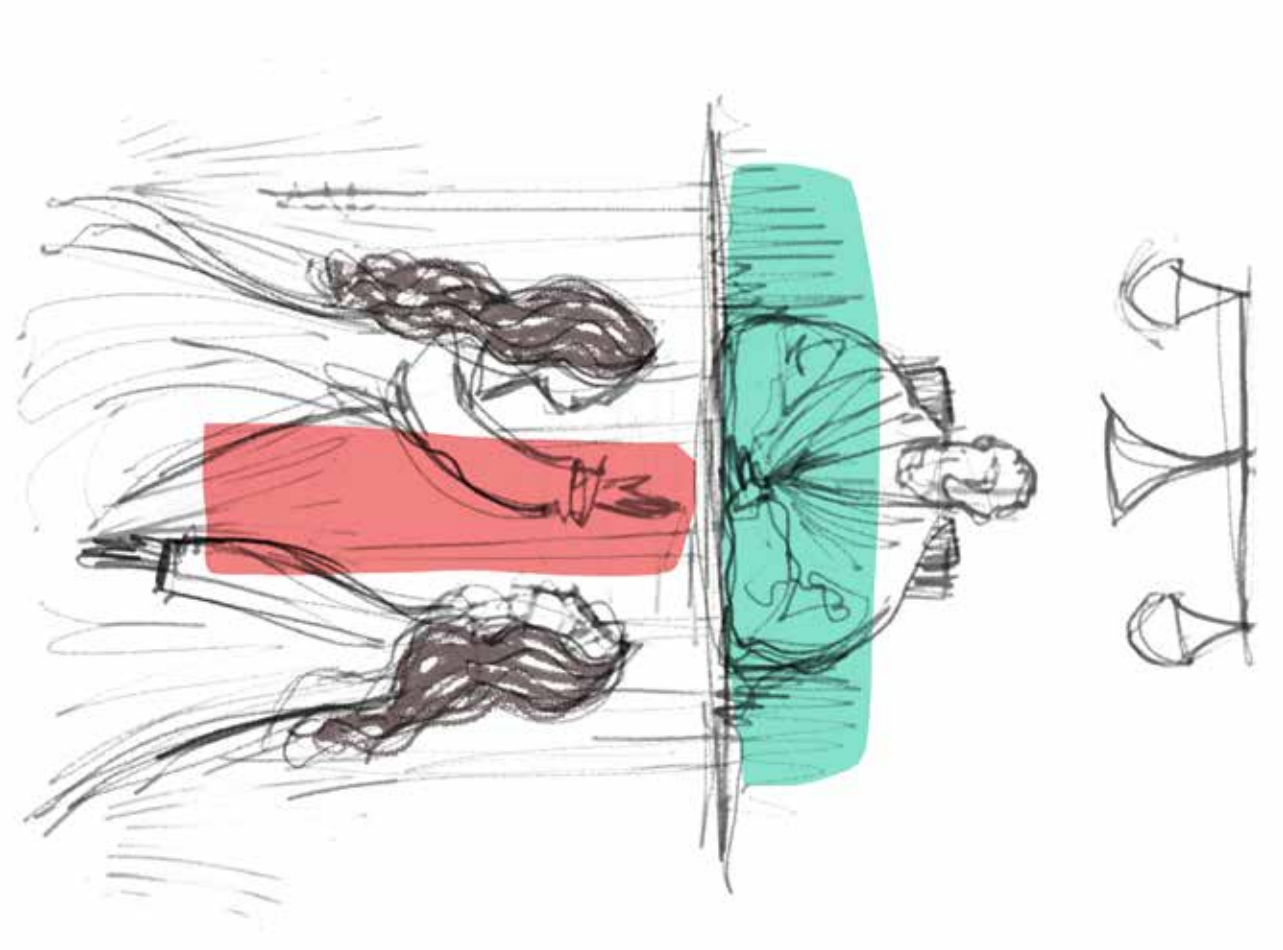

حصة العلوم

قصة للطالبة

سجود محمد شماسنة

مدرسة بنات القبيبة الثانوية / القدس

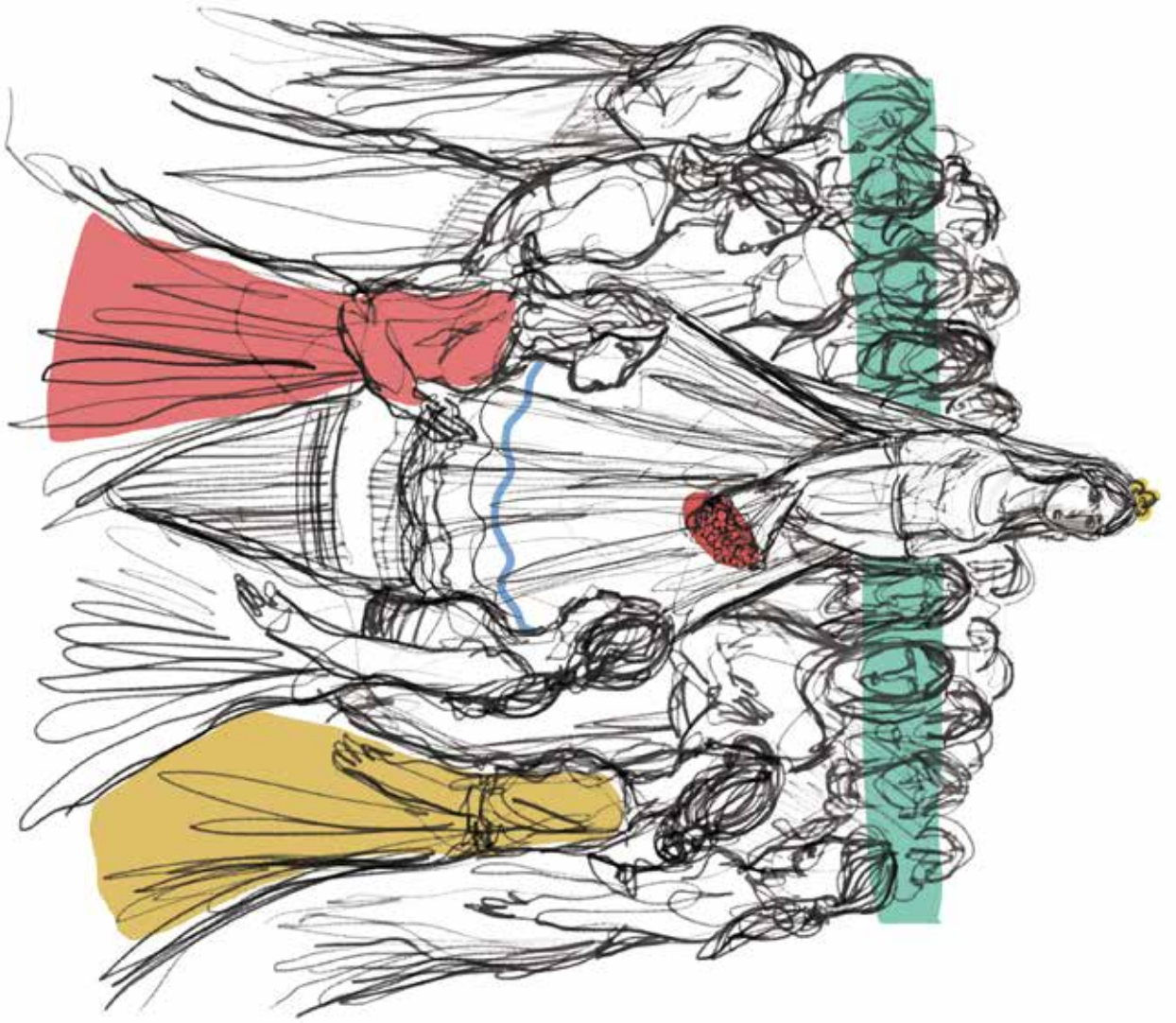

وضعت زهور التوليب البيضاء في كل زاوية من زوايا القاعة الفخمة الكبيرة، وامتلأت الساحة بضحكات النساء وصخبهن مصاحبة للأغاني الشعبية. كل امرأة ارتدت أفضل لباس عندها، ووضعت مكياجاً يغطي ملامح وجهها كي تبدو بأبهى طلة، ولأكون صريحة لقد كانت ألوان ظلال عيونهن مخيفة أكثر من كونها جميلة، أما أنا فوقفت على اللوج، أعلى مكان في القاعة، حيث يرى الجميع كل تحركاتي المرتبكة، حاولت قدر الإمكان أن أبدو مشغولة بشيء ما حولي كي أقلل من حدة توتري، االخ قلبي ينبض بصوت عالٍ، أستطيع سماعه، وربما لو وقف أحد بجانبي سيستطيع سماعه أيضاً رغم موسيقى الصالة العالية جداً!

هل شعرت يوماً أن قلبك سيقفز من مكانه؟ أو نسيت كيف تتنفس، فابتلعت الهواء ابتلاعاً؟

لا أرى عمتي، أين ذهبت يا ترى؟ لقد أخبرتها أن تبقى بجانبي.. هفف.. االخ هذا الفستان مزعج جداً، لم أكن أريده، لكن حماتي أصرّت على أنني لن ألبس إلا ما تختاره، صحيح أن هذا الفستان فستان ملكي رائع، وذو قماش بروكار فاخر، إلا أنه واسع جداً في منطقة الصدر، لكن عمتي إحسان، التي تجد الحلول دائما لكل شيء، والتي تقول الأشياء كما هي، تدبرت الأمر عندما ساعدتني في ارتدائه، فقالت إنه جميل جداً، رغم أنه، حاولت ألا تقول هذا إلا أنها أكملت:

غير مناسب لفتاة في الخامسة عشرة من عمرها!

يا ربي، أين عمتي الآن؟ لقد طلبت منها أن تبقى معي!

لا أعرف لِمَ أشعر بذات شعور الرهبة والتردد الذي أحسست به عندما أتوا لخطبتي؟ بل أنا الآن خائفة أكثر من السابق، ويداي ترتجفان بشدة، يا ويلي ستسقط أظافري الاصطناعية إذا بقيت على هذه الحال من الارتجاف!

رفعت رأسي لأنظر إلى باب الصالة لأتسلى بمراقبة الداخل والخارج، علّي أخفف من توتري، ربما تصل عمتي سريعاً! هناك تجلس صديقتي نور، تبدو عليها آثار التعب بشدة، وكأنها لم تنم منذ أن حملت بطفلها، لقد كانت رقيقة ذات جسم صغير، لكنها الآن لا تبدو رقيقة بل ضعيفة، نحيلة، شاحبة، تحمل بطنها الذي بدأ يتكوّر، من الجيد أنها لبّت دعوتي، سوف ترى فستاني الجميل! أتذكر جيداً كيف أنها في يوم أتت إلى المدرسة، وهي تخفي هاتفها، وعندما لاحت لها الفرصة بعيداً عن أعين المعلمات أخرجته، ثم بدأت تقلب به لترينا كم أن خطيبها كان كريماً، وأنه اشترى لها هذا الهاتف من أفضل الأنواع، وعندما طلبت منها أن تريني صورة فستانها رفضت بحجة أنه سيكون مفاجأة، وأنها تخاف من الحسد، وبعد أن ذهبنا لحفلتها ورأيته قلت في نفسي: ويا ريت الفستان عليه القيمة!

الآن سأريها كم أن عريسي غني، لكن... أوه، ها هي تقترب من اللوج، من المؤكد أنها ستسلم عليّ. عدّلت طرحتي، وأسدلت شعري.

ألف مبروك حبيبتي.

الله يبارك فيكي. كيف حالك؟ لم أرك منذ وقت طويل! تبدين متعبة.

الحمد لله، أنا بخير، تعرفين مشاغل الحياة؛ فقد كنت مشغولة بحياتي الجديدة، عما قريب ستفهمين؛ الزواج ليس كما تعتقدين.

كانت تقول هذه الكلمات بصوت ضعيف، وهي تحبس بعينيها دموعاً كادت تسقط، لتكشف ألمها المخبأ وراء ابتسامتها المزيفة.

هل أنت متعبة يا نور؟

كلا، أنا بخير.

واستأنفت الحديث بسرعة، وودعتني وذهبت

لتجلس بين الحضور، فتابعت خطواتها الثقيلة حتى هناك. هذه المرة الأولى التي أرى فيها نور المتغطرسة بهذا الشكل، وكأنها لم تعد تلك الفتاة القوية، المغرورة، سليطة اللسان.

بعد لحظات دخلت حماة نور، أم هيثم. كانت رقبتها مثقلة بالذهب الأصفر بطريقة مبالغ فيها، ابتسمت عندما رأيتها، فقد كانت حماتي دائماً تحاول منافستها، وقد أقامت كل هذه الديكورات من أغلى أنواع الورود كي يكون حفل زفافي أجمل من حفل زفاف نور، لكنها في الحقيقة كانت تريد أن يكون حفل زفاف ابنها المدلل أفضل من حفل زفاف هيثم ابن أم هيثم.

أظن بأن حماتي قد نجحت في هذا؛ لأن نظرات أم هيثم تبوح بدهشتها من كل شيء، نظراتها التي توزعها في المكان، يشي بذلك فمها المفتوح وعيناها المشدوهتان، كل شيء يقول ذلك.

ابتسمت لكن تلك الابتسامة سرعان ما امّحت، تذكرت ذلك اليوم عندما تمت خطبتي لعلي، حضرت أم هيثم مع أهل العريس كونها صديقة حماتي المقربة، وبدأت تتكلم عن مدى غلاء أثاث منزلها الجديد، وهي تشير إلى أثاثنا القديم، حتى إنها أشارت إلى أثاث بيتنا قائلة:

هذا الأثاث لا أرضى أن أتصدق به حتى على الفقراء!

وجم الجميع، وأنا بقيت صامتة، لم أعرف كيف سأرد عليها، شعرت بأني يجب أن أفعل ذلك، لكن حماتي قاطعت كلام أم هيثم الفظ بكلام أكثر فظاظة، قائلة إنه لأنني جميلة فلا أستحق أن أعيش في مكان فقير كهذا، ولهذا فقد خطبتني لابنها! عندها اشتعلت غضباً وغادرت المجلس كي أبتعد عن نظراتهم، وبعد أن رحلوا تفاجأت بصفعة عنيفة أردتني أرضاً، كانت من يد والدي وهو يصرخ:

كيف تغادرين هكذا، وتقللين من احترام عائلة خطيبك؟

عندها تدخلت عمتي لتسكت غضب أبي، وعندما هدأت الأمور جلست بجانبي. كنت أتنفس بصعوبة، ودموعي تبلل ملابسي. قالت عمتي إن ما قمت به كان غير لائق، وأن حماتي كانت تقصد أنني جميلة، ولم تعنِ أي شيء سيئ، لكن هذا الكلام لم يبد مقنعاً لي، فرددت على عمتي بكلام واضح:

أنا لا أريد هذا الزواج.

ماذا؟ هل جننتِ؟ من أجل كلام تافه ستلغين الزواج.

وهل هذا كلام تافه يا عمتي؟ قولي لي أليس كلامها يمس كرامتي، هل تظنون أني غبية أم ماذا؟

بل ستكونين غبية إذا لم تكملي هذا الزواج، هل تودين أن تبقي هنا عند والدك، تفطرين على ضرب، وتنامين على صراخ؟ تكلمي.. هل تعجبك هذه الحياة؟ لم تخطئ حماتك عندما قالت ذلك الكلام، فإنه الواقع، انظري إلى ملابسك، ثم انظري إلى كل هذه الهدايا التي أحضروها من أجلك؟ يجب أن تفهمي الواقع.

لا يهمني كل هذا.... أنا فقط أر...

ماذا تريدين أنت؟ ماذا؟ ألا ترين أن كل من في عمرك قد تزوجن؟ ماذا ينقصك؟ لماذا لا تتزوجي أيضاً؟ ثم إن الله فتحها عليك، انظري من أتى لخطبتك؟ علي الذي يملك مزارع ومحلات، ويجني في اليوم الواحد أموالاً أكثر من راتب والدك الذي يجنيه في الشهر كله.

نهضت عمتي، واتجهت نحو باب الغرفة، وهي غاضبة. أمسكت بمقبض الباب، والتفتت إليّ بعينين استطعت أن أرى الشرر يتطاير منهما.

وهل تظنين بأن والدك سيسمح بإلغاء هذا الزواج؟

قالت جملتها الأخيرة وصفقت الباب، وعندها انهارت قواي تماماً، واستسلمت لغيبوبة طويلة من النوم.

آخ! الآن أشعر بغصة في حلقي، وتقف الدمعة على طرف جفني، لقد كان قراري أن أكمل هذا الزواج علني أجد راحتي فيه، لكني في هذه اللحظة لا أدري لِمَ لست مرتاحة، وأحس بمزيج من المشاعر تعتلي قلبي، مشاعر سلبية، أنا خائفة حقاً، لكن عمتي طمأنتني؛ سأتزوج برجل صالح، سيعتني بي، لن يؤذيني، وسأعيش في أكناف بيته كالأميرة. لكن هل هذا صحيح؟؟

عندما كنت صغيرة كنت ألعب «بيت بيوت»، وأقيم حفل زفاف صغيراً أكون فيه العروس، وتضع لي أمي قماشة بيضاء على رأسي كي تبدو كالطرحة، وأما العريس فقد كان دائماً والدي. يا ليتني أعود طفلة، يا ليت الأمور تعود كما في السابق ويعود أبي كما كان.

استفقت من ذكرياتي على صوت منسّقة الأغاني، وهي تعلن وصول العريس وأهله، وبعدها علت موسيقى الاستقبال، عندها بدأ قلبي يرقص مع الإيقاع، كأن الطبل الذي يدق موجود في صدري، وهنا باغتتني دمعة لم تعد تستطيع الوقوف طويلاً تحت جفني، فوقعت على خدي لتفسح المجال لعشرات القطرات المالحة بعدها للعبور من هناك، ثم السقوط هنا، على خدي. دخل العريس وأهله من البوابة الكبيرة، ودخلت أمامه فرقة «الشعب» الراقصة، تحمل السيوف، ويتحرك من فيها حركات المحاربين، فيضربون سيوفهم ببعضها البعض، فبدأ السيافة بالرقص، وأنا ما زلت أحاول إيقاف دمعي، وإسكات دقات قلبي، وإراحة صدري، أو على الأقل إزالة غصة حلقي؛ سوف

تـذوب الماسـكارا الآن، سـوف يتدمّـر كل شيء، قلـت لنفـسي، لكـن ذلـك لم ينفـع.

بـدأ النـاس بالنظـر إليّ، وتركـوا ذلـك العـرض المذهـل، لتبـدأ كل واحـدة مـن الحـاضرات تهمـس في أذن الأخـرى، مستغربات مـن بـكائي، آآه لـو يعلمـن بحريـق قلبـي! رأيـت عـلي يتقـدم نحـوي بسرعـة، وقـد كانـت تعابـير وجهـه غاضبـة، وكـم مـن المخيـف أن يغضـب الرجـال! لم أعـرف لـو سـألني: لمـاذا تبكـين؟ بمـاذا أجيـب، مـاذا يجـب أن أفعـل يـا ربي.

وقف بجانبي، وبحركة سريعة، لم يرها أحد لكزني من كوعي، وقال والشرر يتطاير من عينيه:

اخرسي!!!!

تجمـدت دموعـي السـاخنة، وانعقـد لسـاني، عندهـا فقـط توقفـت عـن البـكاء، فبـماذا سـينفع البـكاء الآن؟ لقـد فـات الأوان، هـل قـال لي اخـرسي أم أننـي تخيلـت ذلـك؟ أجـل، لقـد قـال لي اخـرسي، أنـا التـي أصبحـت زوجتـه الآن، وفي يـوم زفـافي! أيجـب أن أخـرس حقـاً وأكمـل؟ لم أعـد أرى أمامـي، وكأن العـالم كلـه توقـف عـن الـدوران، خفتـت كل الأصـوات مـن حـولي، وبـدأ عقـلي بالتفكـير في مصيبتـه الكبـيرة.

إلى أن أتت يد من مكان ما، وبدأت تمسح آثار الدموع عن خدي بعنف، لقد كانت حماتي، ثم همست لي:

من يراك يقول إنكِ تزوجت قسراً! لقد فضحتنا.

خـارت قـواي، ولم أعـد أسـتطيع الوقـوف عـلى قدمـي، ليـس بسـبب الألم المـبرح الـذي سـببه لي الكعـب العـالي الـذي انتعلتـه كي يتناسـب طـولي مـع طـول العريـس، إنمـا بسـبب حالـة هـزال أصابتنـي فجـأة.

بـدأ الرقـص مـن جديـد، وكأن كل هـذا العـالم مـن حـولي لا يسـمع، ولا يـرى، بـدأت النسـاء بالرقـص، وكأن كل واحـدة منهـن لم تـر الهـم يومـاً! جلـس العريـس، وجلسـت وأصابعـي تتشـابك ببعضهـا البعـض إلى أن وصلـت عمتـي، فتحججـت لهـا بـأني أحتـاج الدخـول إلى الحـمام فسـاعدتني عـلى النهـوض، ودخلنـا غرفـه تبديـل الملابـس، وأسرعـت عمتـي لتفتـح لي بـاب الحـمام.

لا أريد.

لا تريدين دخول الحمام؟ إذن لِمَ ..؟

لا أريد إكمال الزفاف.

ماذا؟ ماذا تقولين يا هذه؟ وهل تظنين بأن هذا لعب أولاد صغار! لِمَ تقولين هذا الآن؟ ..لا تخرجيني عن عقلي، تكلمي لِمَ؟؟

أليس لديك عينان، أو حتى أذن لتسمعي، وتري ما يحدث يا عمتي؟ إنهم لا يريدون حبيبة وشريكة، أرأيت كيف تعاملني أمه؟ هل تظنونني كلباً تريدون التخلص منه بأسرع وقت قبل أن يفضحكم بنباحه؟

وهل ستتزوجين من علي أم من أمه؟ لا يمكنك ترك كل شيء الآن، هذا ليس سبباً، ألا تقدرين ماذا يمكن أن يفعل والدك بك؟

ليس فقط من حماتي، وأيضاً علي، لقد لكزني الآن، وتعرفين ماذا قال لي، أتعرفين؟

ماذا سيقول لك مثلاً؟

هههه أتعرفين كيف يهدئ علي زوجته في يوم زفافها! لقد قال لي: اخرسي، هذا ما قاله. أتظنون بأني لا أملك كرامة؟ أتظنونني سلعة تتاجرون بها ؟ تحدثي يا عمتي.

اششش، اخفضي صوتك.

اقتربت منها ووضعت كلتا يدي على كتفها، وقلت بهدوء:

كيف لك أن تكوني هكذا يا عمتي؟ استمعي إليّ.

بل أنت استمعي يا هذه.

قالت ذلك وهي تبعد يدي عن كتفها بعنف، وأكملت:

لا يمكنك ترك كل شيء الآن. لقد فات الأوان، لو فسد حفل الزفاف هذا سيقتلك والدك دون تردد، وصدقيني سأقف معه في هذا القرار، لا يمكنك فعل أي شيء الآن. يجب أن ترضي بما كتب الله لك، أنا متأكدة بأن علي سيقدم لك الحياة التي تستحقينها، أما إذا بقيت في منزل والدك فلن تستطيعي التقدم في حياتك أبداً، هناك في بيت زوجك ستكونين أنت الآمرة والناهية، وستكونين خير أم لأبنائك، لا تضيعي هذه الفرصة من يدك؛ ستعيشين برفاهية لم يصل إليها أحد، حتى نور المتغطرسة لم تصل، ستلبسين أفضل الثياب، وتنامين على أنعم الأسّرة، فقط جاري علي وأمه لبعض الوقت، وسيتحول العالم إلى جنة.

نظرت في عينيّ عمتي، اللتين كانتا تبرقان، وهي تصف الحياة التي سيقدمها لي هذا الزواج، لكن هل هذا صحيح، أم أنها فقط أحلام عمتي الموجودة في مخيلتها الضيقة، التي تبنتها من مسلسلاتها التركية الطويلة، ذات النهايات السعيدة.

هذا رأيك. أتظنين بأن الأمور ستتحسن؟

اقتربت عمتي مني، ووضعت يدها على صدغي، ثم قالت بهدوء:

بالطبع يا حبيبتي، كل شيء سيكون بخير؛ علي يحبك.

وهكذا كانت عمتي قد تلفظت بآخر كلمات تعويذتها السحرية، لتجعلني أؤمن من جديد بتلك الحياة الوردية.

هيا، أسرعي يجب أن تعودي إلى الصالة، سوف تبدأ الرقصات الخاصة بالعروسين بعد قليل.

صعدت اللوج بخطوات ثقيلة، وبوجه مخطوف اللون، لولا بعض الدقيق الأبيض الذي وضعته خبيرة المكياج، التي اعتنت بي في الصالون، لظهر كل ذلك الخوف والحزن اللذين أخفيهما.

وقف العريس ليلتقط بعض الصور مع أخواته وأمه، وأنا بقيت أنتظر وسط ساحة الرقص، حتى ينتهي مما يفعل، أظن أنه قد تمادى بأخذ راحته في التقاط الصور، لأن الأغنية التي كنا سنرقص عليها قد انتهت.

لقد كنت مهمومة، ومنشغلة جداً، أفكر بالحديث الذي دار بيني وبين عمتي في الحمام قبل قليل، ولم انتبه لعلي الذي كان يقف بتأفف ينتظر مني أن أبدأ بالرقص، يبدو أنني قد تأخرت لثانية بعد أن انتهى من رقصته مع أهله، وملّ بسرعة من انتظاري بضع ثوان، أو أنه شعر بالإحراج لكوني أهملته دون قصد، أو ألم أشعر بالإحراج أنا أيضاً؟؟

دفعتني حماتي من الخلف قائلة:

ابدئي.

وهكذا بدأت أرقص بطريقة مختلفة تماماً على إيقاع الأغنية، ولم أتحرك بتلك الرشاقة التي كان علي يريدها، لأن الفستان كان يزعجني، وحذائي العالي كان يذبح قدمي ببطء مع كل خطوة.

أُستُدعيَ والدي وحماي للدخول في نهاية الحفل. دخل والدي بوجه مبتسم مختلف تماماً عن ذلك الوجه الذي لبسه بعد وفاة أمي بسنة، واستمر حتى وقت قريب، قبل هذه الحفلة! إنه فخور بي بالتأكيد، من الجيد أنني لم أخرب الأمور، وإلا لكان الآن يصرخ في وجهي بدل ابتسامته هذه. اقترب أبي مني ومدّ يده ليسلم عليّ، صحيح أن هذه تعد طريقة جافة لسلام بين أب وابنته التي ستغادره وتغادر منزله إلى الأبد، لكنه كان أمراً مسّ قلبي بشدة، فنحن نادراً ما كنا نلقي التحية على بعضنا البعض، غالباً لأن مزاجه ما كان ليسمح بذلك. هل هذا ما كان يريده؟ أن أبتعد عنه حتى يعود، ويحبني، ويبتسم لي من جديد؟ حسناً، هأنا الآن أتزوج. كنت دائماً أرى، في كل حفلات الزفاف، العروس تبكي على أهلها، لكن لا أعرف لِمَ أشعر بأنه من الخطأ أن أبكي عليهم، لو كنت سأبكي فإني بالتأكيد سأبكي على نفسي وحظي.

انتهى الزفاف، وعاد كل المدعوين إلى بيوتهم، ويبدو أنه قد حان دوري كي أعود إلى بيتي الجديد. أمسك علي بمعصمي، وبطرف ثوبي الوارف، وساقني إلى السيارة المنتظرة بكامل زينتها في الخارج، ركبت والخوف يعتلي صدري، وجلست حماتي بجانبي، وهي تتنهد، بعد أن فكت زنارها عن بطنها:

وأخيراً انتهينا.

ولكن، ألن تأتي عمتي معي؟

رد علي بحزم واستهزاء:

هههههه لا فأنا لا أحتاج إلى عروسين في آن واحد.

استهجنت كلامه، بل لقد شعرت بالاشمئزاز، وتمنيت لو أنني لم أسأل.

ردت حماتي قائلة:

لا، لن تأتي، فلم يعد قدومها مهماً.

لم أنبس ببنت شفة بعد هذا الحديث، حتى وصلنا قفصي الجديد. نزلت من السيارة. وقفت عند باب البيت، بيتي، ثم قدمت لي حماتي وعاء في داخله عجينة، وطلبت مني أن أنتظر دخول العريس إلى الغرفة، وبعد أن دخل أمرتني:

احملي العجينة، واضربيها بالحائط بقوة.

حملت تلك العجينة، وقد كانت ثقيلة، خفت أن أوسخ فستاني، فضربتها بكل قوتي بالحائط، لكن لم يصدر، عن تلك الضربة، صوت كبير، كانت حماتي ستقع على الأرض من الضحك.

مش نافعة هههههههه

قال علي من الداخل بصوت ضاحك:

هذا هو المطلوب.

هيا، ادخلي إلى جانب زوجك.

جرتني إلى الداخل، ثم أغلقت الباب، وهنا وصل طبل قلبي إلى حلقي، ماذا سيحصل الآن، أنا لم أتلق أي معلومة من عمتي عن هذا المشهد، كيف لي أو كيف لها أن تنسى هذا المقطع المهم، ياااا الله، ما الحل الآن؟

زوجتي، تعالي، أنا أنتظر.

ماذا ماذا يقول هذا؟ ياااا إلهي، ما الذي فعلته بنفسي؟ نزلت دمعتي الساخنة على خدي مروراً إلى فمي، حتى شعرت بملوحتها.. أنا لا أستطيع أبداً البقاء هنا.

لاااا هذا أمر عادي؛ كل الفتيات قد مررن بهذا، وكلهن سيمررن به أيضاً. حسناً، سأمضي قدماً، سأذهب إليه لأرى ماذا يريد، فهو كما قالت عمتي، إنه رجل صالح، ثم أنا زوجته الآن، لن يحصل لي أي مكروه.

تقدمت إلى الغرفة بخطوات ثقيلة.

ه ها أنا.

لقد كان جالساً إلى جانب السرير وينظر إليّ.

بما أنك وصلتِ، هيا إذن.

ماذا؟ هيا ماذا؟

قال هازئاً:

ألم تكوني موجودة في حصة العلوم؟

عجز لساني عن الرد، وكان وجهي قد أبدى بعضاً من بلاهة عقلي لجهلي بما سيحدث.

ألم تفهمي؟

حسناً، لقد فهمت، لكن متأخراً جداً، أخذ الأمر سنوات طويلة، ومنذ تلك اللحظة تغيرت أنا، وتغيرت حياتي؛ نمت طفلة في الرابعة عشرة من عمرها، وصحوت امرأة بالجسد نفسه، وبروح ثانية.

لوحة وألوان

قصة للطالبة

بتول نافز حمودة

مدرسة بنات القبيبة الثانوية / القدس

أغمضت عيني، وأسندت رأسي إلى الحائط بعد أن أنهيت أعمال المنزل، أخذت المرآة ونظرت إلى وجهي: الحبوب انتشرت عليه، إنه يشبه وجه عمتي رحمة، فقد زارتها الحبوب، كما تفعل عادة، قبل المناسبات، فقررتُ أن أحضّر ماسك الفراولة واللبن، وبينما أنا أهرس الفراولة تذكرت عماتي وأمي عندما تقاسمت ثلاثتهن القناع ذاته، وتمددن، كل منهن بجانب الأخرى، في صالة البيت، حينها قالت لي عمتي رحمة:

بشرتك، ما شاء الله! لا يوجد فيها أي حبوب، لستِ بحاجة هذه الخلطات يا نور.

ما هذا إذن؟

وضعت القناع على وجهي، كانت الساعة الثامنة إلا ربعاً، وما إن وصل زوجي وارتدى بجامته، حتى كنت قد غسلت وجهي، ووضعت له العشاء على الطاولة، فتناول اللقمة الأولى من الكوسا، وألحقها بلقمة أخرى من الشوربة الحمراء، ثم رمقني بطرف عينيه مبتسماً ابتسامة تشبه تلك التي كنت أرسمها بالبخار على شباك غرفتي في أيام الشتاء الماطرة، وقال:

يبدو أنكِ بدأت تتعلمين الطبخ من أمي؛ فمذاق الكوسا هذه المرة أفضل من ذاك الذي طبخته قبل أسبوعين.

قلت في عقلي: "يسعدلي طناجر حماتي المحروقة، ولا الكوسا المالح تبعها"!

أجبته:

نعم، أحفظ وصفاتها بأدق التفاصيل، حتى كمية الملح التي تضعها.

بينما ذهب هو ليستحم، أمسكت هاتفي، وفتحت حسابي على الانستغرام، شاهدت إحدى لوحات الرسامة التشكيلية العراقية لبنى الأفندي؛ قطعة من القماش الأسود الطويلة على ذلك الشعر البني، تناسق بين الأسود والثوب الأزرق الذي يعانق البدن، وكأن نظرتها إلى القصر الكبير، من خلفها كانت التفسير الوحيد لوجود تلك القماشة السوداء على رأسها وظهرها حتى أسفل قدميها.

احضري لي المنشفة يا نور.

هكذا قطع ذلك الصوت الخشن جلسة التأمل في اللوحة.

كنت أعتقد، قبل سنوات، أنه ما إن أصل عامي السابع عشر حتى أصبح الرسامة المبدعة الصغيرة نور محمد الورّاق، توقعت أني سأتقن الرسم، ولكن في الحقيقة وفي الواقع فقد أتقنت طبخ الكوسا!

قطـار الأيـام يسـير، وتلـك اللوحـة لم تغـب عـن بـالي، كلـما تذكرتهـا كانـت دقـات قلبـي تصبـح أسرع مـن خطـوات طفلـة صغـيرة بفسـتانٍ وردي تركـض بسرعـة لتختبـئ في لعبـة الغميضـة.

ألو .....

ألو ... أبي ، أريد أن تحضر لي دفاتر الرسم، وألواني، ورسوماتي المعلقة على الخزانة في غرفتي.

على الأقل قولي كيفك يابا، كيف صحتك؟

هههه حقك علينا يا حج، كيفك وكيف صحتك؟ وكيف الحجة؟ داير بالك عليها؟

الحمد لله بخير، بالتأكيد فهذه كنارتي.

الحمد لله.

أمـا بخصـوص دفاتـرك، وألوانـك، ورسـوماتك، فـإن شـاء اللـه أحضرهـا لـكِ بعـد أن أنهـي عمـلي في المنجـرة، حـضري ألـذّ فنجـان قهـوة مـن تحـت يديـكِ الجميلتـين.

اسـتيقظت باكـراً، وغليـت القهـوة لمارسـيل، ثـم جلسـت بـين ألـواني ودفاتـري ولوحـات الكانفـس التـي رسـمتها مـن قبـل وعلقتهـا في غرفـة خاصـة، حولتهـا إلى غرفـة للرسـم في بيتـي.

امممممم، لقـد اسـتخدمت في الفيديـو قلـم فحـم، والقلـم الـذي أملكـه صغـير جـداً، أحتـاج قلـماً جديـداً، سـأطلب مـن مارسـيل أن يحـضر لي قلـماً جديـداً.

ماذا تفعلين هنا؟ وما هذه الفوضى من حولك؟

مارسيل، أتيت في وقتك، أريد أن تحضر لي قلم فحم وممحاة؛ اشتقت للرسم، وقررت أن أعود إليه من جديد، فأطوّر مهاراتي فيه أكثر وأكثر.

استغفر الله العظيم، اليوم الجمعة، والمكتبات لا تفتح في هذا اليوم، ارتدي ملابسكِ لتنزلي إلى بيت أهلي، أمي تريد أن نتناول الفطور معهم اليوم.

لم أكن أتوقع أن عمتي لن تعلق على فكرة عودتي لتعلم الرسم، خاصة أنها طوال وقتها معي تتكلم عن وصفات الطبخ التي تشاركها جارتنا أم سعيد في صفحتها على الفيسبوك، وعن زوجة ابنها سعيد ومهارتها في إعداد الحلويات الغربية، وكل ما تريده حماتي أن أصبح ماهرة في الطبخ، أو حتى في إعداد الحلويات! توقعت أن تقول لي تعلمي شيئاً ينفع بيتك وزوجك بدلاً من هذه الأفكار غير النافعة.

قرعت باب المنزل ظهر يوم السبت، وفي يدها قلم الفحم والممحاة وألوان الخشب. أعطتني الأغراض وجلست في الصالون، ثم قالت:

سأنتظر نصف ساعة هنا إلى أن تلبسي ثيابك، علينا أن نذهب إلى الطبيبة؛ لنعرف إن كنتم قد «خبأتم لنا شيئاً».

رحت أجهز نفسي، وأنا أفكر: لماذا لا تقول لي حماتي ما تفكر به مباشرة، لماذا لا تناقشني! صوت قرقعة الطناجر وصل إلى غرفتي. فتحت الباب قليلاً، ونظرت من الشق الصغير، إنها تفتش في الطناجر لترى ماذا طبخت لمارسيل اليوم.

أجرينا الفحص، فقالت الطبيبة الشيء الذي توقعته منذ فترة بعد أن لاحظت أن الدورة الشهرية قد انقطعت:

ستصبحين أماً.

شعور جميل، لكنه مبكر!

أتى شهر نيسان، لقد دخلت في شهري الأخير من أشهر الحمل المتعبة، تمر أيام هذا الشهر أبطأ من السلحفاة، لم أعد أطيق الإمساك بلونٍ أو دفتر، فقط أظل مستلقية على سريري.

أما الجزء الجميل من هذا الشهر فهو أن حماتي أخذت عني أعمال المنزل، وفقط تركت لي مهمة الطبخ، ولكنني، حتى هذه، ارتحت منها لكن، في الحقيقة، ليس بإرادتي، فمع تقدم أشهر الحمل لم أعد أطيق رائحة الطعام، فقامت حماتي بمهمة الطبخ عني؛ شعرت بتأنيب الضمير أولاً، ثم فكرت في نفسي: أليست هي من تريد أن أنجب لها حفيدها الأول؟!

يبدو أن حفيدي البطل لا يريد الخروج، أصبحنا في نصف الشهر، وهو لم يخرج بعد، متى سيخرج؟ جدته تنتظر رؤيته على أحر من الجمر، استعجلي يا نور.

لست مستعجلة يا عمتي، أريد أن أترك ابني على راحته، قد تكون عتمة بطني أكثر إشراقاً من نور شمس الحياة.

له له له مالك! اللي بسمعك، بقول حياتك نكد!

سلامتك يا عمتي، وبخصوص حفيدك لا تخافي، سيخرج قريباً إن شاء الله.

لم تكن حماتي تشعر بما أشعر به؛ ولا أحد شعر بذلك، الخوف أن أكون طفلة مسؤولة عن طفل!

في تمام الساعة الرابعة صباحاً استيقظت من الألم. فتحت شباك الغرفة لأتنفس هواء نظيفاً. وجدت شجرة الكرز حينها كانت قد بدأت بالإثمار، وآلام المخاض كانت قد بدأت، إنني، أنا وشجرة الكرز، نتشارك بالإثمار، ولكن لا أعرف إن كانت تشاركني بآلام المخاض، رغم ذلك لم أكن أتمنى لهذه الشجرة الألم الذي أشعر به.

صارت الساعة الثامنة، كل ساعة كانت أطول من سنة دراسية كاملة. في المستشفى، قالت الطبيبة إن عليّ الانتظار وقتاً أطول، فلا يوجد وقت مناسب للولادة، لقد بقي الوقت مجهولاً، وهذا كان يحرق أعصابي.

انتشر العرق على جسدي كقطرات الندى التي تتكون على أوراق شجرة الكرز في الصباح الباكر، وصراخي كان أعلى من صوت الأغاني في قاعة النساء في الأعراس، كان صراخي يخرج من أعماق قلبي، ووجهي كان أشد حمرة من ثوب جدتي الذي كانت قد لبسته في عرس أبي وأمي، أما حماتي فكان همها الوحيد هو أن يخرج حفيدها، فتصوره على هاتفها، لتريه لجارتها أم سعيد وكنتها، لأنها أرتها صورة ابن سعيد حين أنجبت كنتها، ولجارتها أم محمود، لأنها دائماً تحضر معها حفيدها وسام في زيارتها الصباحية لأي جارة، لتتباهى ببشرته الشقراء، وعيونه الناعسة الخضراء. كانت حماتي تستعجل ولادتي كأنها تستعجل نهاية مسلسل تشاهده على شاشة التلفاز!

ما إن مرت ساعة حتى نادت عليّ الطبيبة، وفحصتني من جديد، ثم قالت سأنتظر نصف ساعة، وبعدها نبدأ. اتكأت على كتف حماتي وأخذت أتمشّى في الغرفة إلى أن تمر آخر نصف ساعة قبل الولادة وتأتي المحاولة التالية، ثم قالت لي:

شدي همتك يا نور، لم يبقَ إلا القليل، ثم ما كل هذه الانفعالات؟ أنجبت تسعة ولم أصرخ مثل هذا الصراخ، دلع بنات!

ومن جديد عدت للصراخ...

وطي صوتك، فرجيتِ المستشفى علينا. يا حسيرتي عليك يا مارسيل مش عارف كيف تحمل دلعك طول هالفترة!

بالتأكيد من يأكل الضرب بالعصا ليس كمن يعد الضربات!

أنجبت تسعة، ولم أفعل نصف ما فعلتِ.

يا ربي لم أعد أحتمل!

مضت عشرون دقيقة من تلك النصف ساعة الغريبة، ارتفع صوت صراخي، وبدأت دموعي بالتساقط. جلست على سرير الغرفة، شعرت أن الطفل بدأ بالنزول. ركض مارسيل مسرعاً لينادي الطبيبة.

وأخيراً سيبدأ الجزء الأخير من مشقة الحمل، وسينتهي هذا العذاب، سأتخلص من هذا البطن الكبير، أتت الطبيبة لتبدأ الولادة، وبدأت تشرح لي كيف يجب أن يكون تنفسي أثناء الولادة.

استنشقي هواء يا نور كما قلت لكِ.

هيا يا نور، هيا يا زوجتي.

الطفل يخرج، ادفعي أكثر هيا يا عزيزتي هيا.

لا يا نور، طريقة تنفسك خاطئة، تنفسي كما قلت لكِ، إنك تعيدين الطفل إلى الداخل بدلاً من أن تدفعيه للخارج، تعاوني معي حتى ترتاحي من هذا الألم.

نور تحملي قليلاً، تحملي من أجل ابننا يا عزيزتي.

خذي نفساً عميقاً، وادفعي بقوة مرة واحدة هيا.

أخذت نفساً عميقاً، وبدأت أدفع بقوة، وكل ما كنت أريده هو أن يخرج الطفل، وينتهي هذا العذاب. أمسكت يد مارسيل ووضعتها في فمي، وكنت أشد عليها بأسناني؛ نتشارك أنا ومارسيل في كل شيء منذ أن أصبحنا في بيت واحد، لنتشارك إذن هذا الألم أيضاً.

لم يبقَ إلا القليل يا نور، هيا بقي القليل، القليل يا عزيزتي.

حاولت بكل جهدي الالتزام بما تقوله الطبيبة لي من توجيهات.

أحسنتِ يا نور.

طفلي العزيز يشاركني البكاء.

الحمد لله على سلامتكِ.

وضعوه فوق صدري. أمسكته وقبلته، ثم أخذوه لينظفوه، وبعد أن أحضروه مرة ثانية أتت حماتي، والتقطت له صورة قبل أن تفكر بحمله.

عندما عدت إلى البيت وجدت شجرة الكرز قد أثمرت أيضاً، كانت حبات الكرز قد تكونت في عناقيد، تجذب كل من يراها ليقطف منها ويأكل، تماماً كطفلي الجميل الذي يبدو شهياً كثمرة فاكهة!

زادت مسؤولياتي، لكني حاولت الاستفادة من وقتي قدر المستطاع، لقد عدت إلى الرسم، طبخت الكوسا، ورضعت إسلام وهدهدته حتى نام، ثم دخلت إلى غرفة الرسم، بالتأكيد تذكرت تلك الرسمة:

أنا وإسلام تحت شجرة الكرز المثمرة، أشعة الشمس تضيء أوراق

الشجرة، أما الآن فقد اخترت الأحمر لون العزيمة والتحدي لوناً للثوب الذي ألبسه، والمنديل الأبيض المعرّق بالأسود يغطي شعري الأسود الطويل، ويمتد بجانبي على الأرض، وكأن اللون الأسود فيه يعبر عن هدفي الذي تحول إلى حلم ضائع بعد أن دخلت تلك الغرفة التي حولتني إلى امرأة، كان حلمي أن أدرس الموسيقى في جامعة النجاح، وأن أتزوج عازف بيانو ليعزف لي معزوفة يسميها «إلى نور» كمعزوفة بيتهوفن التي سماها «إلى إليزا»؛

إليزا التي كانت تساعده وتعمل معه في بيته، ولكن أنا سيعزف لي بصفتي زوجته!

حدقت في منديلي: ما أقل الأسود بين الأبيض فيه!

أنظر إلى شجرة الكرز وأبتسم. هذه كانت لوحتي، لوحة نور، علقتها في صالون بيتي وبدأت أرسم طفلي، قررت أن أرسم له لوحات كثيرة خلال سنواته الأولى ليعلقها لاحقاً في غرفته.

جميع الحقوق محفوظة © 2019
مركز الدراسات النسوية، القدس، فلسطين

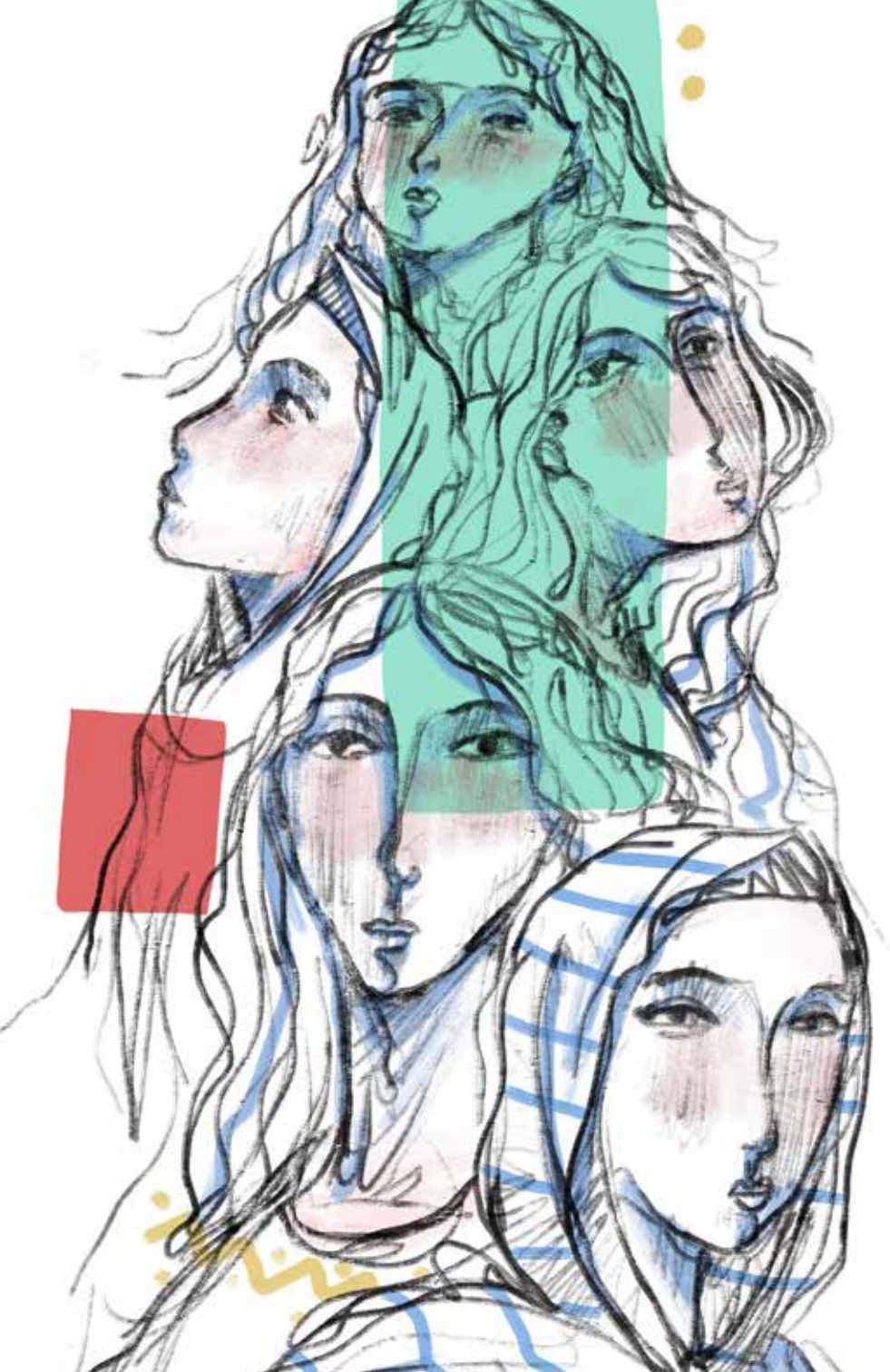

مركز الدراسات النسوية
Women's Studies Centre

إصدار: مركز الدراسات النسوية
ص ب. ٥٤٠٧١ القدس
هاتف: ٢٣٤٧٢٢٩ ٢ ٩٧٢ (+)
فاكس ٢٣٤٨٨٤٨ ٢ ٩٧٢ (+)
بريد الكتروني: admin@wsc-pal.org

wsc-pal.org WscPal